٦ الإسلام استسلام لله .. وسلام مع الكون

إنها دعوة تُوجَّه في كل حين للذين آمنوا ، ليُخلصوا ويتجرَّدوا ، وتتوافق خطرات نفوسهم واتجاهات مشاعرهم مع ما يريد الله بهم ، وما يقودهم إليه نبيهم ودينهم ، فى غير ما تلجلج ولا تردد ولا تلفت.

يقول الحق سبحانه : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٠٨)**﴾ (البقرة)

إن الله هو الإله الخالق للكون ، ولا بد أن يعيش الخلق فى سلام معه ، لأنكم لا تؤمنون إلا به إلهاً واحداً ، فيجب علينا أن نعيش مع الأرض والسماء والكون فى سلام ؛ لأن الكون الخاضع المقهور المسخَّر الذى لا يملك أن يخرج عما رُسِم له يعمل لخدمتك ولا يعاندك.

والإنسان حين يكون طائعًا يُسَرُّ به كل شيء فى الوجود ، لأن الوجود طائع ومُسبِّح ، فساعة يجد الإنسان مُسبِّحاً مثله يُسَرُّ به لأنه فى سلام مع الكون ، وأنت فى سلام مع نفسك ، لأن لك إرادة ، وهذه الإرادة قهر الله لها كل جوارحك ، والذى تريده من أى عضو يفعله لك ، لكن هل يرضى أىُّ عضو عمّا تأمره به ؟

تلك مسألة أخرى ، فلسانك ـ مثلاً ـ ينفعل بإرادتك ، فتقول به "لا إله إلا

الله" وقال به غيرنا ـ من المشركين ـ غير ذلك ، وأشركوا مع الله بشراً وغير بشر يعبدونهم ، وقال الملحدون بألسنتهم والعياذ بالله : "لا إله فى الكون" ولم يعص اللسان أحداً من هؤلاء ، لأنه مقهور لإرادتهم.

والحق حين ينادى المؤمنين بأن يدخلوا فى السِّلْم كافة ، فالمعنى يحتمل أيضاً أن الحق سبحانه وتعالى يخاطب المسلمين ألا يأخذوا بعضاً من الدين ، ويتركوا البعض الآخر ، فيقول لهم : خذوا الإسلام كله وطبِّقوه كاملاً ، لأن الإسلام يمثل بناء له أسس معلومة ، وقواعد واضحة ، فلا يحاول أحد أن يأخذ شيئاً من حكم بعيداً عن حكم آخر ، وإلا لحدث الخلل.

وعلى سبيل المثال ، قد تجد خلافاً بين الزوج والزوجة ، وقد يؤدى الخلاف إلى معارك وطلاق ، وبعد ذلك نجد من يتهم الإسلام بأنه أعطى الرجل سيفاً مسلطاً على المرأة ، ونقول لهم : ولماذا تتهمون الإسلام ؟ هل دخل على الزواج بمنطق الإسلام؟

إن كنت قد دخلت على الزواج بمنطق الإسلام فستجد القواعد المنظمة والتى تحفظ للمرأة كرامتها ، ولكن هناك من يدخل على الزواج بغير منطق الإسلام ، فلما وقع فى الأزمة راح ينادى الإسلام.

هل اختار الرجل من تشاركه حياته بمقياس الدين ؟ وهل وضع نصب عينه شروط اختيار الزوجة الصالحة التى جاءت فى الحديث الشريف : « تنكح المرأة لأربع : لمالها ، ولحسبها ، ولجمالها ، ولدينها فاظفر بذات الدين تَرِبَتْ يداك »[1].

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٨٠٢) كتاب النكاح ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٤٦٦) كتاب الرضاع ، وأخرجه كذلك الدارقطنى فى سننه رقم (٢١٢) ، وابن حبان فى صحيحه (٤٠٣٦) كلهم من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.

هل فضَّل الرجل ذات الدين على سواها ؟ أم فضَّل مقياساً آخر ؟ وعندما جاء رجل ليخطب ابنة من أبيها ، هل وضع الأب مقاييس الإسلام فى الاعتبار عند موافقته على هذا الزواج ؟ هل فضَّلتم مَنْ ترضَوْنَ دينه وخُلقه ؟ أم تركتم تلك القواعد ؟ أنت تركت قواعد الإسلام ، فلماذا تلوم الإسلام عند سوء النتائج والعواقب .

إنك إن أردت أن تحاسب فلا بد أن تأخذ كل أمورك بمقاييس الإسلام ، ثم تصرَّف بما يناسب الإسلام ، فإذا كنت كذلك فالإسلام يحميك من كل شىء، فالإسلام يساند القوى فى الكون ويساند القوى فى النفس بحيث تعيش فى سلام ولا تتعاند ، لأن كل ذلك يقابله الحرب ، والحرب إنما تنشأ من تعاند القوى ، فتتعاند قوى نفسك فى حرب مع نفسك ، وتتعاند قوى البشر فى حرب البشر مع البشر ، وتتعاند قواك مع قوى الكون الأخرى ، فأنت تعاند الطبيعة ، وتعاند مع الحق سبحانه وتعالى.

لذلك لا بد للبشر جميعاً أن يكونوا تبعاً لقوة آمنوا بأنها فوقهم جميعاً ، فحين نؤمن ندخل فى السلم ، ولا يوجد تعاند بين أى قوة وقوة أخرى ، لأنى لست خاضعاً لك ، وأنت لست خاضعاً لى ، وأنا وأنت مسلمون لقوة أعلى منى ومنك ، ويُشترط فى القوة التى نتبعها طائعين ألا يكون لها مصلحة فيما تشرع.

إن المشرعين من البشر يراعون مصالحهم حين يشرعون ، فمشرع الشيوعية يضع تشريعه ضد الرأسمالية ، ومشرع الرأسمالية يضع تشريعه ضد الشيوعية ، لكن عندما يكون المشرع غير منتفع بما يشرع ، فهذا هو تشريع الحق سبحانه وتعالى.

وحين ندخل فى الإسلام ندخل جميعاً لا يشذ منا أحد ، ذلك معنى : ﴿**ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً** ﴿٢٠٨﴾﴾ (البقرة) ، هذا معنى وارد وهناك معنى آخر وارد، وهو ادخلوا فى السلم أى الإسلام بجميع تكاليفه بحيث لا تتركوا تكليفاً يشذ منكم.

أما المعنى الأول فلأننا لو لم ندخل فى السلم جميعاً لشقى الذى يسلمون بالذين لا يسلمون ، لأن الذى يسلم سيهذب سلوكه بالنسبة للآخرين ، ويكون نفع المسلم لسواه ، ويشقى المسلم بعدم إسلام من لم يسلم ، فمن مصلحتنا جميعاً أن نكون جميعاً مسلمين.

والذين لا يدركون هذه الحقيقة يفسرون قول الله تعالى ﴿ **لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ** ﴿١٠٥﴾﴾ (المائدة) على غير ظاهرها ، فمن ضمن هدايتكم أن تُبصِّروا من لم يؤمن بأن يؤمن ، لأن مصلحتكم أن تسلموا جميعاً ، فإذا أسلمت أنت فسيعود إسلامك على الغير ، لأن سلوكك سيصبح مستقيماً مهذباً ، والذى لم يسلم سيصبح سلوكه غير مستقيم وغير مهذب ، وستشقى أنت به.

إذن : فمن مصلحتك أن تقضى وقتاً طويلاً وتتحمل عناء كبيراً فى أن تدعو غيرك ليدخل فى الإسلام. وإياك أن تقول : إن ذلك يضيع عليك فرص الحياة ، لا إنه يضمن لك فرص الحياة ، ولن يضيع وقتك لأنك ستحمى نفسك من شرور غير المسلم.

والله سبحانه وتعالى شاء أن يجعل أسس الإسلام خمسة ، وبعد ذلك يُبنى الإسلام ، وحين يبنى الإسلام فإياك أن تأخذ لبنة من الإسلام دون لبنة ، بل يؤخذ الإسلام كله ، فالضرر الواقع فى العالم الإسلامى إنما هو ناتج من

التلفيقات التى تحدث فى العالم المسلم ، تلك التلفيقات التى تحاول أن تأخذ بعضاً من الإسلام وتترك بعضاً ، وهذا هو السبب فى التعب والضرر ، لأن الإسلام لابد أن يؤخذ كله مرة واحدة.

إذن ﴿ **ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً (٢٠٨)** ﴾ (البقرة) يعنى : إياكم أن تتركوا حكماً من الأحكام ، إن الذى يتعب المنتسبين إلى الدين الآن أننا نريد أن نلفق حياة إسلامية فى بلاد تأخذ قوانينها من بلاد غير إسلامية.

إذن : حتى ننجح فى حياتنا ، فلا بد أن نأخذ الإسلام كله ، وللأسف فإن كثيراً من حكام البلاد المسلمة لا يأخذون من الإسلام إلا آخر قول الله تعالى ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ (٥٩)** ﴾ (النساء) إنهم يأخذون ﴿ **أُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ (٥٩)** ﴾ (النساء) ويتركون ﴿ **أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ (٥٩)** ﴾ (النساء)

وأقول: لماذا تأخذون الأخيرة وتتركون ما قبلها ؟ إن الله لم يجعل لولى الأمر طاعة مستقلة ، بل قال : ﴿ **أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ (٥٩)** ﴾ (النساء) ليدل على أن طاعة ولى الأمر من باطن طاعة الله وطاعة الرسول ، فنحن لا نريد تلفيقاً فى الإسلام ، خذوه كاملاً تستريحون أنتم ، ونستريح نحن معكم.

والحق سبحانه بعد أن أمرنا جميعاً بالدخول فى السلم بافعل ولا تفعل، حذرنا من اتباع الشيطان لأنه هو الذى يعمل على إبعادنا عن منهج الله ، فقال جل شأنه : ﴿**وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٠٨)** ﴾ (البقرة)

فعداوته للإنسان عداوة مسبقة ، وقف من آدم موقف العداوة ، وبعد ذلك أقسم بعزة الله أن يغويكم جميعاً ، وما دام له معكم عداوة مسبقة فلن يأخذكم على غرَّة ، لأن الله نبهكم لتلك المسألة مع الخلق الأول.

﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧)﴾ (الأعراف)

فالشيطان يأتيهم من الأمام ، فهو يشككهم فى حكاية الآخرة ، ويشككهم فى البعث ، ويحاول أن يجعل الإنسان غير مقبل على منهج الله ، فيصير من الذين لا يؤمنون بلقاء الله ، ويشكُّون فى وجود دار أخرى سيُجَازى فيها المحسن بإحسانه ، والمسىء بإساءته.

والشيطان يأتى أيضاً من الخلف ، وخلف كل واحد منا ذريته ، يخاف ضيعتهم ، فيوسوس الشيطان للبعض بالسرقة أو النهب أو الرشوة من أجل بقاء مستقبل الأبناء ، وفساد أناس كثيرين يأتى من هذه الناحية ، ومثل هذا الفساد يأتى حين يبلغ بعض الناس منصباً كبيراً ، وقد كبرت سنُّه ، ويقبل على الله بشرٍّ ، ويظن أنه يترك عياله بخير.

لكن ، إذا كنت تخاف عليهم حقاً فأمِّن عليهم فى يد ربهم ، ولا تُؤَمِّن حياتهم فى جهة ثانية ﴿ **وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٩)** ﴾ (النساء)

ويأتى الشيطـان من اليمين ليزهد الناس ويصرفهم عن عمل الحسن والطاعة ، واليمين رمز العمل الحسن ، لأن كاتب الحسنات على اليمين ، وكاتب السيئات على الشمال ، ويأتى عن شمائلهم ليغريهم بشهوات المعصية.

ولكن الشيطان لا يأتى للإنسان من فوق ومن تحت ، لأن الفوقية هى الجهة التى يلجأ إليها مستغيثاً ومستجيراً بربه ، والتحتية هى جهة العبودية الخاصة ،

فالعبد أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد ، فهو فى هاتين الحالتين محفوظ من تسلط الشيطان عليه ، فإن الله تعالى يقول : ﴿**إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلاً ﴿٦٥﴾**﴾ (الإسراء)

ويقول الحق سبحانه : ﴿**فَإِن زَلَلْتُم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾**﴾ (البقرة)

والزلة هى المعصية ، وهى مأخوذة من "زال" ، وزال الشىء أى : خرج عن استقامته ، فكأن كل شىء له استقامة ، والخروج عنه يعتبر زللاً ، والزلل : هو الذنوب والمعاصى التى تخالف بها المنهج المستقيم.

ولقد جاءتكم البينات وبيَّنْتُ ووضحت لكم كل شىء ، ولم أترككم لعقولكم ، فلتستعملوها استعمالاً صحيحاً لتديروا حركة الكون الذى استخلفتكم فيه ، ومع ذلك إن أصابتكم الغفلة فأنا أرسل الرسل.

لقد رحم الله الخلق بإرسال الرسل ليبينوا للإنسان الطريق الصحيح من الطريق المعوج.

واعلموا أن الله عزيز حكيم ، فعِزَّته سبحانه أنه يغلب ولا يُغلب ، وهو سبحانه يدبر أمورنا برحمة وحكمة.

٧ إنفاق من رزق الله لنا

إنها دعوة للإنفاق من رزق الله الذى أعطانا إياه فهو الذى أعطى ، وهو الذى يدعو للإنفاق مما أعطى ، ومدة الدنيا هى الفرصة التى إن أفلتت منا فلن تعود ، حيث لا بيع تُربح فيه الأموال وتنمو ، وليس بعده صداقة أو شفاعة تردُّ عنهم عاقبة التقصير أو الإحجام عن الإنفاق فى سبيل الله .

يقول الحق سبحانه : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٥٤)**﴾ (البقرة)

وكأن الحق سبحانه يقول : لا أطلب منكم أن تنفقوا علىَّ ، ولكن أنفقوا من رزقى عليكم ، لأن الرزق يأتى من حركة الإنسان ، وحركة الإنسان تحتاج طاقة تتحرك فى شىء أو مادة ، وهذه الحركة تأتى على ترتيب فكر ، وهذا الفكر رتبه من خلقه ، والجوارح التى تنفعل ، واليد التى تتحرك ، والرِّجْل التى تمشى خلقها الله ، والمادة التى تفعل بها مخلوقة لله .

فالإنسان يعمل بالعقل الذى خلقه الله ، ويخطط بالجوارح التى خلقها الله لتأتى له بالطاقة التى يعمل بها فى المادة التى خلقها الله لتعطى للإنسان خيرها.. فأىُّ شىء للإنسان إذن ؟

ومع ذلك ، إن حصل للإنسان خير من هذا كله فهو سبحانه لا يقول : «إنه

لى» بل أمنحه لك أيها الإنسان ، ولكن أعطنى حقى فيه ، وحقى لن آخذه لى ولكن هو لأخيك المسكين ، والحق سبحانه يقول : ﴿**مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾**﴾ (الذاريات)

وإياك أن تقول: وما دخلى أنا بالمسكين ؟ عليك أن تعلم أن المسكنة عَرَض، والعرض من الممكن أن يلحق بك أنت ، فلا تُقدِّر أنك مُعْطٍ دائماً ، ولكن قَدِّر أنك ربما حدث لك ما يجعلك تأخذ ، لا أن تعطى.

الحق سبحانه يقول لك : أعط المسكين وأنت غنى، لأنه سبحانه سيقول للناس: أن يعطوك وأنت فقير، فقدِّر حكم الله ساعة يُطلب منك ، ليحميك ساعة أن يُطلب لك ، وبذلك تتوازن المسألة.

ومع أنه سبحانه هو الذى يرزق ، فهو يريد منكم أيها العباد أن تتعاونوا وأن يحب بعضكم بعضاً ، حتى تُمحى الضغائن من قلوبكم ، لأن الإنسان الضعيف ضعفاً طبيعياً ـ وليس ضعف التسول أو الكسل أو الاحتراف ، بل ضعف عدم القدرة على العمل ـ هو مسئولية المؤمنين ، فسبحانه وتعالى يجعل القوى مسئولاً أن يساعدك وأنت ضعيف.

وأنت حين ترى ـ وأنت ضعيف لا تقدر ـ الأقوياء الذين قدروا لم ينسوك ، وذكروك بما عندهم ، عندئذ تعلم أنك فى بيئة متساندة تحب لك الخير ، فإن رأيت نعمة تنالك إن عجزت فأنت لا تحسدها أبداً ، ولا تحقد على معطيها ، بل تتمنى من حلاوة وقعها فى نفسك ـ لأنها جاءتك عن حاجة ـ تتمنى لو أن الله قدرك لتردها ، فيكون المجتمع مجتمعاً متكافلاً متضامناً.

فحين يقول الله تعالى : ﴿ **أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ ﴿٢٥٤﴾** ﴾ (البقرة) ، فأنتم

لا تتبرعون لذات الله ، بل تنفقون مما رزقكم ، ومن فضل الله عليكم أنه احترم أثر عملكم ونسبه لكم حتى وإن احتاج أخوك.

والحق سبحانه يقول : ﴿**مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴿٢٤٥﴾﴾ (البقرة)

إن الحق سبحانه قد اعتبر النفقة فى سبيل الله قرضاً من العبد للرب الخالق الوهاب لكل رزق ، وينبهنا تعالى أن ننفق من رزق الله لنا من قبل أن يأتى اليوم الآخر الذى لا بيع فيه ، أى : لا مجال فيه لاستبدال أثمان بسلع أو العكس.

وأيضاً لا يكون فى هذا اليوم " خُلَّة " ومعنى "خُلَّة" هى الود الخالص، وهى العلاقة التى تقوم بين اثنين ، فيصير كل منهما موصولاً بالآخر بالمحبة ، لأن كلاً منكما منفصل عن الآخر ، وإن ربطت بينكما العاطفة ، وفى الآخرة سيكون كل إنسان مشغولاً بأمر نفسه.

إن اليوم الآخر ليس فيه بيع ولا شراء ، ولا فيه خُلَّة ولا شفاعة ، وهذه هى المنافذ التى يمكن للإنسان أن يستند عليها ، فأنت لا تملك ثمناً تشترى به ، ولا يملك غيرك سلطة فى الآخرة ، إذن : فهذا الباب قد سُدَّ. وكذلك لا يوجد خلة أو شفاعة .

وهذه الشفاعة مأذون فيها ، إن كانت ممن أذن له الله أن يشفع فهى فى يد الله ، ومعنى "شفيع" مأخوذ من الشفع والوتر، الوتر واحد والشفع اثنان ، فكأن الشفيع يضم صوته لصوتى لنقضى هذه الحاجة عند فلان ، فيتشفع الإنسان بإنسان له جاه عند المشفوع عنده حتى ينفذ له ما يطلب.

ولكن هذه الوسائل فى الآخرة غير موجودة ، فلا بيع ولا خُلَّة ولا شفاعة ،

فأنتم إذا أنفقتم اتقيتم ذلك اليوم ، فانتهزوا الفرصة من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خُلَّة ولا شفاعة .

وهذه هى أبواب النجاة المظنونة عند البشر التى تُغلق فى هذا اليوم العظيم، وكأن الحق سبحانه وتعالى يقول : أنا لم أُفوِّت فرصة على خَلْقى ، خلقى هم الذين ظلموا أنفسهم وأوقفوا أنفسهم هذا الموقف ، فأنا لم أظلمهم ، لذلك يُذيِّل الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿**وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٥٤)**﴾ (البقرة)

٨ لماذا تمنُّ بما أنفقتَ .. والمالُ ليس مالك ؟

أراد الإسلام بالإنفاق تهذيباً وتزكية وتطهيراً لنفس المعطى ، واستجاشة لمشاعره الإنسانية ، وارتباطه بأخيه الفقير فى الله وفى الإنسانية ، وأن ينفق من نعمة الله فى سبيل الله بغير منّ أو أذى ، فالمنُّ والأذى يمحقان الإنفاق ، ويمزقان المجتمع ، ويثيران الأحقاد والضغائن.

يقول الحق سبحانه : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤)**﴾ (البقرة)

فالذى يتصدق ويُتبع صدقته بالمنِّ والأذى ، إنما يبطل صدقته ، وخسارته تكون خسارتين :

- الخسارة الأولى : أنه أنقص ماله بالفعل ، لأن الله لن يعوض عليه ، لأنه أتبع الصدقة بما يبطلها من المنِّ والأذى.

- والخسارة الأخرى : هى الحرمان من الثواب ، فالذى ينفق ليقول الناس عنه إنه ينفق ، عليه أن يعرف أن الحق يوضح لنا أنه يعطى الأجر على قاعدة أن الذى يدفع الأجر هو مَنْ عملتَ له العمل.

إن الإنسان على محدودية قدرته يعطى الأجر لمن عمل له عملاً ، والذى يعمل من أجل أن يقول الناس إنه عمل ، فليأخذ أجره من القدرة المحدودة للبشر.

ولذلك قال لنا رسول الله ﷺ عن الذى يفعل الحسنة أو الصدقة ليقال عنه إنه فعل ، فإنه يأتى يوم القيامة ولا يجد أجراً له :

« ورجل وسع الله عليه ، وأعطاه من أصناف المال كله ، فأتى به فعرَّفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملتَ فيها ؟ قال : ما تركت من سبيل تحب أن يُنفق فيها إلا أنفقتُ فيها لك. قال : كذبت ولكنك فعلتَ ليقال : هو جواد فقد قيل. ثم أُمِر به فسُحِب على وجهه ثم أُلْقِى فى النار » (١) .

فأنت إذا صنعتَ معروفاً تقصد به وجه الله عز وجل جزاك الله عنه خيراً ، ولكن إن عملت معروفاً لتحقق به مصلحة دنيوية خاصة بك ، أو تأخذ به شهرة فلا جزاء لك عند الله .

ولابد أن يصنع الإنسان المؤمن كل عمل وفى باله الله خالقه والمتفضل عليه بالنعم ، فإذا أطعمتَ فقيراً فلتطعمه لوجه الله ، وعليك ألا تفعل المروءة من أجل أن يقال عنك : إنك صاحب مروءة.

ومن يفعلون الخير عليهم أن يحرصوا على أن يكون الله عز وجل فى بالهم ، لا أن ينالوا شهرة من هذا الخير ، وألا يأتى منهم هذا الخير لا بمقال ولا بحال ، وعلى سبيل المثال تلك اللافتات التى تُوضع على المساجد بأسماء من قاموا بتأسيسها ، والله عليم بكل شىء ، يعلم اسم من أقام البناء.

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٩٠٥) ، وأحمد فى مسنده (٢/ ٣٢٢) ، والنسائى فى سننه (٦/ ٢٣، ٢٤) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.

وعليك إذا بنيت مسجداً أن تسميه بأى اسم لا يمت لك بصلة ، حتى لا تدخل فى دائرة "عملت ليقال وقد قيل".

وحتى المقاتل الذى يحارب بين صفوف المؤمنين عليه أن يعقد النية لله ، لا أن يقاتل من أجل أن يقال إنه شجاع ، لأنه إن فعل حبط عمله ، وكان من الخاسرين ، لأن عمله قد شابه الرياء.

ولا يهز المجتمعات ولا يزلزلها ويهدُّها إلا هذه المراءاة ، لأن الحق سبحانه يحب أن يؤدى المسلم كل عمل جاعلاً الله فى باله ، وهو الذى لا تخفى عليه خافية.

ولذلك تجد الرسول ﷺ ينقل لنا حال المرائى للناس فيقول : «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ، قالوا : وما الشرك الأصغر يارسول الله ؟ قال : الرياء».

يقول الله عز وجل يوم القيامة إذا جازى العباد بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون فى الدنيا ، فانظروا هل تجدون عندهم الجزاء ؟

وقال ﷺ : « إن المرائى يُنادَى عليه يوم القيامة : يا فاجر ، يا غادر ، يا مرائى ، ضَلَّ عملك وحبط أجرك ، فخذ أجرك ممن كنت تعمل له ».

فالمرائى إنما يخدع نفسه ، فهو يتظاهر بالصلاة ليراه الناس ، ويُزكِّى ليراه الناس ، ويحج ليراه الناس ، هو يعمل ما أمره الله به ، لكنه لا يعمل لله .

والحق سبحانه يقول عن هؤلاء الذى ينفقون مثلاً رئاء الناس : ﴿ **وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا (٣٨)** ﴾ (النساء)

إنه يريد بالإنفاق مراءاة الناس.

ولذلك يقول العارفون بفضل الله : اختر مَنْ يُثمِّن عطاءك ، فأنت عندما تعطى شيئًا لإنسان فهو يُثمِّن هذا الشيء بإمكاناته وقدراته ، سواء بكلمة ثناء يقولها مثلاً أو بغير ذلك ؟ لكن العطاء لله كيف يُثمِّنه سبحانه ؟ لا بد أن يكون الثمن غالياً.

إذن : فالعاقل ينظر لمن سيعطى النعمة ، ولنا الأسوة فى سيدنا عثمان رضي الله عنه عندما علم التجار أن هناك تجارة آتية له ، جاء كل التجار ليشتروا منه البضاعة ثم يبيعوها ليربحوا ، وقال لهم : جاءنى مَنْ يعطينى أكثر من ثمنكم ، وفى النهاية قال لهم : أنا بعتها لله .

إذن : فقد تاجر سيدنا عثمان رضي الله عنه مع الله ، فرفع من ثمن بضاعته فالذى يعطى رئاء الناس نقول له : أنت خائب ، لأنك ما ثمَّنت نعمتك ، بل ألقيتها تافهة الثمن ، ماذا سيفعل لك الناس ؟ هم قد يحسدونك على نعمتك ويتمنون أن يأخذوها منك ، فلماذا ترائيهم ؟

إذن : فهذه صفقة فاشلة خاسرة ، ولذلك قال الحق : ﴿**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ** (١١١)﴾ (التوبة)

وما دام سبحانه هو الذى اشترى فلابد أن الثمن كبير ، لأنه يعطى النعيم الذى ليس فيه أغيار ، ففى الجنة لا تفوت النعمة مؤمناً ، ولا هو يفوتها ، فالذى يرائى الناس خاسر ، ولا يعرف أصول التجارة ، لأنه لم يعرف طعم التجارة مع الله.

ولذلك شبَّه عمله فى آية أخرى بقوله : ﴿**كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا** (٢٦٤)﴾ (البقرة)

والصفوان هو المروة ، وجمعه مرو ، وهى حجارة بيض براقة ، والمروة ناعمة وليست خشنة ، لكن بها بعض الثنايا يدخل فيها التراب ، ولأن المروة ناعمة جداً ، فقليل من الماء ـ ولو كان رذاذاً ـ يذهب بالتراب.

والذى ينفق ماله رئاء الناس هو من تتضح له قضية الإيمان ، ولكن لم يثبت الإيمان فى قلبه بعد ، فلو كنت تعلم أنك تريد أن تبيع سلعة وهناك تاجر يعطيك فيها ثمناً أعلى ، فلماذا تعطيها للأقل ثمناً ؟

إنك إن فعلتَ فقد خِبْتَ وخسرت ، فأوضح لك الحق : ما دمت تريد رئاء الناس ، إذن : فأنت ليس عندك إيمان بالذى يشترى بأغلى ، فتكون فى عالم الاقتصاد تاجراً فاشلاً.

ولذلك قلنا : ليحذر كل واحد حين يعطى أن يخاف من العطاء ، فالعطاء يستقبله الله بحُسن الأجر ، ولكن عليه ألا يعطى بضجيج ودعاية تفضح عطاءه.

ولذلك قال النبى ﷺ ضمن السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : « رجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه» (١)

إن العبد الصالح حين يعطى فهو يعلم أن يده هى العليا ، ويده خير من اليد السفلى ، فليستر على الناس المحتاجين سفلية أيديهم ، ولا يجعلها واضحة.

ولكن الحق سبحانه وتعالى لا يريد أن يضيق مجال العطاء ، فقال : ﴿**إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** (٢٧١)﴾ (البقرة)

---

(١) متفق عليه . أخرجه البخاري فى صحيحه (٦٦٠) ، ومسلم فى صحيحه (١٠٣٠) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه .

فإبداء الصدقات لا مانع منه إن كان من يفعل ذلك يريد أن يكون أسوة ، المهم أن يخرج الرياء من القلب لحظة إعطاء الصدقة ، فالحق يوضح : إياك أن تنفق وفيك رئاء ، أما من يُخرج الصدقة وفى قلبه رياء ، فالله لا يحرم المحتاجين من عطاء مُعْطٍ ، لأنه سبحانه يؤكد : خذوا منه وهو الخاسر ، لأنه لن يأخذ ثواباً ، لكن المجتمع ينتفع.

وإياك أن تطلب جزاء الخير الذى تفعله مع المحتاجين من المساكين واليتامى وأبناء السبيل ، ولكن اطلبه من الله ، وإياك أن تحاول أن يعلم الناس عنك أنك منفق على هؤلاء ، لأن الذين تريدهم أن يعلموا لا يقدرون لك على جزاء ، وعلمهم لن يزيدك شيئاً ، وحسبك أن يعلم الله الذى أعطاك ، والذى أعطيت مما استخلفك فيه ابتغاء مرضاته.

فحين ينفق الناس لمرضاة الناس يلقون من بعد ذلك النكران والجحود فيكون من أعطى قد خسر ما أنفق ، واستبقى الشر ممن أنفقه عليهم .

ولو أن الإنسان المسلم قصد بالإنفاق وعمل الخير مرضاة الخالق الأعلى عز وجل لاستبقى ما أنفق من حسنات وثواب ليوم القيامة ، ولسخَّر الله له قلوب من تصدق عليهم بالمحبة والوفاء بالمعروف ، وهذه عدالة من الله تتجلى فى أنه يفعل مع المرائين ذلك ، لأنهم يعطون وفى بالهم أنهم أعطوا له ، ولو أعطوا لله لما أنكر الآخذ جميل العطاء ، أنت أعطيته لمرضاته هو ، فكأن الله يقول لك : سأتركك له ليجازيك .

ولهذا كان المتصدِّق فى السر من السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله ، فمنهم « رجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » وهذا هو الأفضل فى صدقة التطوع ، وأما الزكاة الواجبة فإعلانها

أفضل ، وكذلك الحال بالنسبة للصلاة ، فالفريضة يكون إعلانها أفضل ، أما النافلة فيكون إسرارها أفضل .

لكن لو عملت وفى بالك الله فستجد أثر العطاء فى وفاء مَنْ أخذ ، فإياكم أن تحاولوا ولو من طرف خفى أن يعلم الناس أنكم تفعلون الخير.

ويقول الحق سبحانه فى آية أخرى : ﴿**الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢)**﴾ (البقرة)

إياك حين تنفق مالك فى سبيل الله وأنت طامع فى عطاء الله ، أن تمنَّ على من تعطيه أو تؤذيه ، والمنّ هو أن يعتد على من أحسن إليه بإحسانه ويريه أنه أوجب عليه حقاً له ، وأنه أصبح صاحب فضل عليه ، وكما يقولون فى الريف (تعاير بها).

والشاعر يقول :

وإن امرءاً أسدى إلىَّ صنيعة وذكَّرنيها مرة للئيم

ولذلك ، فمن الأدب الإيمانى فى الإنسان أن ينسى أنه أهدى وينسى أنه أنفق ، ولا يُطلع أحداً من ذويه على إحسانه على الفقير ، أو تصدُّقه عليه ، وخاصة الصغار الذين لا يفهمون حكمة الله فى الأشياء ، فعندما يعرف ابنى أننى أعطى لجارى كذا ، ربما دلَّ ابنى ومَنَّ على ابن جارى ، ربما أخذه غروره فعيَّره هو ، ولا يمكن أن يُقدِّر هذا الأمر إلا مُكلَّف يعرف الحكم بحيثيته من الله.

إن الحق سبحانه يوضح لنا : إياك أن تُتبع النفقة مناً أو أذى ، لأنك إن

أتبعتها بالمنِّ ، ماذا يكون الموقف ؟ يكرهها المعطى الذى تصدقت بها عليه ويتولد عنده حقد ، ويتولد عنده بغض ، ولذلك حينما قالوا : « اتق شر من أحسنت إليه» شرحوا ذلك بأن اتقاء شر ذلك الإنسان بألاَّ تذكره بالإحسان ، وإياك أن تذكره بالإحسان ، لأن ذلك يُولِّد عنده حقداً.

ولذلك تجد كثيراً من الناس يقولون : كم صنعتُ بفلان وفلان الجميل. هذا كذا وهذا كذا ، ثم خرجوا علىَّ فأنكروه ، وأقول لكل من يقول ذلك : ما دمت تتذكر ما أسديته إليهم فمن العدالة من الله أن ينكروه ، ولو أنك عاملت الله لما أنكروه ، فما دمت لم تعامل الله فإنك تقابل بنكران ما أنفقت.

وانظر إلى الدقة الأدائية فى قوله الكريم : ﴿ **ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى**﴾ (البقرة) قد يستقيم الكلام لو جاء كالآتى : الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ، ولا يتبعون ما أنفقوا مناً ولا أذى .

لكن الحق سبحانه قد جاء بـ "ثم" هنا ، لأن لها موقعاً ، إن المنفق بالمال قد لا يمنُّ ساعة العطاء ، ولكن قد يتأخر المنفق بالمنِّ ، فكأن الحق سبحانه وتعالى ينبه كل مؤمن : يجب أن يظل الإنفاق غير مصحوب بالمنِّ ، وأن يبتعد المنفق عن المنِّ دائماً ، فلا يمتنع عن المنِّ فقط وقت العطاء ، ولكن لا بد أن يستمر عدم المنِّ حتى بعد العطاء وإن طال الزمن.

إن "ثم" تأتى فى هذا المعنى لوجود مسافة زمنية تراخى فيها الإنسان عن فعل المنّ ، فالحق يمنع المنَّ منعاً متصلاً متراخياً ، لا ساعة العطاء فحسب ، ولكن بعد العطاء أيضاً.

ويُطمئن الحق سبحانه مَنْ ينفقون أموالهم دون منٍّ ولا أذى فى سبيل الله بأن لهم أجراً عند ربهم. وكلمة "الأجر" هى طمأنة إلى أن الأمر قد أُحيل إلى موثوق بأدائه ، وإلى قادر على هذا الأداء. أما الذى يمنُّ أو يؤذى فقد أخذ

أجره بالمن أو الأذى ، وليس له أجر عند الله ، لأن الذى يَمنُّ أو يؤذى لم يتصور رب الضعيف ، وإنما تصور الضعيف.

والمنفق فى سبيل الله حين يتصور رب الضعيف ، وأن رب الضعيف هو الذى استدعاه إلى الوجود ، وهو الذى أجرى عليه الضعف ، فهو يؤمن أن الله هو الكفيل برزق الضعيف ، وحين ينفق القوى على الضعيف فإنما يؤدى عن الله.

ولذلك نجد فى أقوال المقربين : "إننا نضع الصدقة فى يد الله قبل أن نضعها فى يد الضعيف" ، ولننظر ما فعلته سيدتنا فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، لقد راحت تجلو الدرهم وتُطيِّبه ، فلما قيل لها : ماذا تصنعين ؟ قالت : أجلو درهماً وأُطيِّبه لأنى نويت أن أتصدق به. فقيل لها: أتتصدقين به مجلواً ومُعطَّراً؟

قالت الزهراء بنت رسول الله ﷺ : لأنى أعلم أنه يقع فى يد الله قبل أن يقع فى يد الفقير. إن الأجر يكون عند من يُغليه ويُعليه ويرتفع بقيمته ، وهو الخالق الوهاب.

والحق سبحانه يقول ﴿**قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (٢٦٣)**﴾ (البقرة)، فالمنّ يجعل الآخذ فى ذلة وانكسار ، ويريد المعطى أن يكون فى عزة العطاء وفى استعلاء المنفق ، فهو يقول : إنك إنْ فعلتَ ذلك ستتعدى الصدقة منك إلى الغير فيفيد ، ولكنك أنت الخاسر ، لأنك لن تفيد بذلك شيئاً ، وإنْ كان قد استفاد السائل.

إذن : فحرصاً على نفسك لا تُتبع الصدقة بالمنِّ والأذى.

٩ الإنفاق يكون من الحلال الطيب

الله غنىٌّ عن الخبيث الذى تقصدون إليه فتُخرجون منه صدقاتكم ، فالكفّ عن الإنفاق أو التقدُّم بالردىء الخبيث إنما ينشأ عن دوافع السوء ، وعن تزعزع اليقين فيما عند الله ، وعن الخوف من الإملاق الذى لا يساور نفساً تتصل بالله ، وتعتمد عليه وتدرك أنَّ مردَّ ما عندها إليه.

يقول الحق سبحانه : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٢٦٧)**﴾ (البقرة)

الحق سبحانه يعالج هنا مظهراً من مظاهر الشُّحِّ فى النفس البشرية، فالإنسان قد يحب أن يعطى ، ولكنه حين تمتد يده إلى العطاء يعزُّ عليه إنفاق الجيد من ماله الحسن ، فيستبقيه لنفسه ، ثم يعزل الأشياء التى تزهد فيها نفسه ليُقدِّمها صدقةً ، فينهانا سبحانه عن ذلك .

فيقول : ﴿**وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ (٢٦٧)**﴾ (البقرة)

أى: إن مثل هذا لو أُعطى لك لَمَا قبلته إلا أن تُغمِض وتتسامح فى أخذه ، وكأنك لا تبصر عيبه لتأخذه ، فما لم تقبله لنفسك فلا يصح أن تقبله لسواك.

إن هذه الآية تعطى صوراً تحدث فى المجتمع البشرى ، وكانت هذه الصور تحدث فى مجتمع المدينة بعد أن أسس فيها رسول الله ﷺ دولة الإسلام ، فبعض من الناس كانوا يحضرون العِذْق من النخل ويعلقه فى المسجد من أجل أن يأكل منه من يريد.

والعذق هو فرع قوى من النخل يضم الكثير من الفروع الصغيرة المعلقة عليها ثمار البلح ، وكان بعضهم يأتى بعذق غير ناضج أو بالحشف وهو أردأ التمر ، فأراد الله أن يجنبهم هذا الموقف ، حتى لا يجعلوا لله ما يكرهون ، فأنزل هذا القول الحكيم :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ (٢٦٧)﴾ (البقرة)

إن الإنفاق يجب أن يكون من الكسب الحلال الطيب ، فلا تأتى بمال من مصدر غير حلال لتنفق منه على أوجه الخير ، فالله طيب لا يقبل إلا طيباً ، ولا يكون الإنفاق من رذال وردىء المال.

ويحدد الحق سبحانه وتعالى وسيلة الإنفاق من عطائه ، فيقول : ﴿ **وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ** (٢٦٧)﴾ (البقرة) ، وهو سبحانه يذكرنا دائماً حين يقول : ﴿ **أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ** (٢٦٧)﴾ (البقرة)

ألاَّ نظن أن الكسب هو الأصل فى الرزق ؟ لا ، إن الكسب هو حركة موهوبة لك من الله ، إنك أيها العبد إنما تتحرك بطاقة موهوبة لك من الله ، وبفكر ممنوح لك من الله ، وفى أرض سخرها لك الله ، إنها الأدوات المتعددة التى خصَّك بها الله ، وليس فيها ما تملكه أنت من ذاتيتك ، ولكن الحق يُقدِّر حركة الإنسان وسعيه إلى الرزق ، فيقول ﴿ **أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ** (٢٦٧)﴾ (البقرة)

ويحذرنا الحق من أن نختار الخبيث وغير الصالح من نتاج عملنا لننفق منه بقوله سبحانه : ﴿ **وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ (٢٦٧)** ﴾ (البقرة)

أى : لا يصح ولا يليق أن نأخذ لأنفسنا طيبات الكسب ونعطى الله ردىء الكسب وخبيثه ، لأن الواحد منا لا يرضى لنفسه أن يأخذ لطعامه أو لعياله هذا الخبيث غير الصالح لننفق منه أو لنأكله.

﴿ **وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٢٦٧)** ﴾ (البقرة). أى : أنك أيها العبد المؤمن لن ترضى لنفسك أن تأكل من الخبيث إلا إذا أغمضت عينيك ، أو تم تنزيل سعره لك ، كأن يعرض عليك البائع شيئاً متوسط الجودة أو شيئاً رديئاً بسعر يقل عن سعر الجيد.

لقد أراد الحق سبحانه وتعالى أن يوضح لنا بهذه الصور أوجه الإنفاق :

- إن النفقة لا تنقص المال ، وإنما تزيده سبعمائة مرة.
- إن النفقة لا يصح أن يبطلها الإنسان بالمنِّ والأذى.
- إن القول المعروف خير من الصدقة المتبوعة بالمنِّ والأذى.
- إن الإنفاق لا يكون رئاء الناس إنما يكون ابتغاء لمرضاة الله.

والإنفاق من الردىء والخبيث ومن أرذل ما عندنا هو نوع من البخل ، والحق سبحانه يقول : ﴿ **وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٨٠)** ﴾ (آل عمران)

ما معنى البخل ؟ إنه مشقة الإعطاء ، فعندما يقطع حاجة من خاصة ماله ليعطيها لغيره يجد فى ذلك مشقة ولا يقبل عليها ، لكن الكريم عنده بَسْط يد وأريحية ، ويرتاح للمعروف.

إذن : فالبخل معناه مشقة الإعطاء ، وقد يتعدى البخل ويتجاوز الحد بضنّ الشخص بالشيء الذى لا يضر بذله ولا ينفع منعه ، لأنه لا يريد أن يعطى. وهذا البخل والشح يكون فى نفس البخيل ، لأنه أولاً قد بخل على نفسه ، فإذا كان قد بخل على نفسه ، أتريد أن يجود على الناس ؟

والشاعر يصور بخيلاً اسمه "عيسى" ويريد أن يذمه ، لأنه بخيل جداً، ويظهر صورة البخل بأنه ليس على الناس فقط ، بل على نفسه أيضاً ، فيما لا يضره بذله ، ولا ينفعه منعه ، وما دام يقتر على نفسه فسيكون تقتيره على غيره أمراً متوقعاً :

يُقَتِّرُ عِيسَى عَلَى نَفْسِهِ وَلَيْسَ بِبَاقٍ وَلاَ خَالِدِ
فَلَوْ يَسْتَطِيعُ لِتَقْتِيرِهِ تَنَفَّسَ مِنْ مَنْخَرٍ وَاحِدِ

إنه بخيل لدرجة أنه يفكر لو استطاع أن يتنفس من فتحة أنف واحدة لفعل ، حتى لا يتنفس بفتحتى أنفه.

إذن : فالبخيل هو مَنْ يضيق بالإعطاء ، حتى أنه يضيق بإعطاء شيء لا يضره أن يبذله ، ولا ينفعه أن يمنعه.

ويقول الحق سبحانه عن البخلاء : ﴿ **وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** (١٨٠) ﴾ (آل عمران)

فالذين يبخلون بفضل الله يظنون أن البخل خير لمجرد أنه يكدس عندهم الأموال ، وليس ذلك صحيحاً ، فما بخلوا به يصنعه الله طوقاً فى رقبة البخيل ، وساعة يرى الناس الطوق فى رقبة البخيل يقولون : هذا منع حق الله فى ماله.

فالحق يجعل للبخيل ما بخل به طوقاً حول عنقه ، ولو أن البخيل قد بذل

قليلاً لكان الطوق خفيفاً حول رقبته يوم القيامة ، لكن البخيل كلما منع نفسه من العطاء ازداد الطوق ثقَلاً.

والرسول ﷺ يصور هذه المسألة تصويراً دقيقاً حين يبين لنا أن من يُطلب منه حق الله ولم يؤده يتمثل المال الذى منعه وضَنَّ وبخل به لصاحبه يوم القيامة "شجاعاً أقرع" ، وهو ثعبان ضخم يطوق رقبته.

قال رسول الله ﷺ : « من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مُثِّلَ له شجاعاً أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة يأخذ بلهزمتيه ـ يعنى شدقيه ـ يقول : "أنا مالك ، أنا كنزك» (١) ثم تلا قوله تعالى :

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ (١٨٠) ﴾ (آل عمران)

ثم يقول سبحانه : ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٨٠) ﴾ (آل عمران)

نعم ، فلله ميراث السموات والأرض ، ثم يضعها فيمن يشاء ، فكل ما فى الكون نسبته إلى الله ، ويوزعه الله كيفما شاء ، إن الإيمان يدعونا ألا ننتظر بالصدقة إلى حالة بلوغ الروح الحلقوم.

رُوى عن أبى هريرة رضي الله عنه أنه قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، أى الصدقة أعظم ؟ قال : «أن تَصدَّق وأنت صحيح شحيح، تخشى الفقر ، وتأمل الغِنى ، ولا تمهل ، حتى إذا بلغت الحلقوم قلت : لفلان كذا وكذا ، وقد كان لفلان» (٢)

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ٢٣١ ، ٢٥٠) ، ومسلم فى صحيحه (١٠٣٢) كتاب الزكاة من حديث أبى هريرة.

(٢) حديث متفق عليه. أخرجه البخارى في صحيحه (٤٦٨١ ، ٧٤١٩)، ومسلم فى صحيحه (٩٩٣)، وأحمد في مسنده (٢/ ٢٤٢ ، ٣١٣ ، ٥٠٠) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.

لأنه عند وصول الروح إلى الحلقوم لا يكون له مال.

﴿ **وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** ﴿١٨٠﴾ ﴾ (آل عمران)، وهى قضية تجعل القلب يرتجف خوفاً ورعباً ، فقد يدلس الإنسان على البشر ، فتجد من يتهرب من الضرائب ويصنع تزويراً دفترين للضرائب ، واحداً للكسب الصحيح ، وآخر للخسارة الخاطئة ، ويكون هذا المتهرب من الضرائب يملك المال ثم ينكر ذلك، هذا الإنسان عليه أن يعرف أن الله خبير بكل ما يعمل.

ويقول رب العزة سبحانه فى الحديث القدسى : "أنْفِق أُنْفِق عليك". وقال: «يَدُ الله ملأى ، لا تغيضها نفقة ، سحاء الليل والنهار ». وقال : «أرأيتُم مَا أنفقَ منذ خلق السماء والأرض ، فإنه لم يَغِضْ ما فى يده ، وكان عرشه على الماء ، وبيده الميزان ، يَخْفِض ويَرْفَع» (١)

والله فضله واسع ، وعطاؤه لا حدود له ، ولذلك يقول رب العزة سبحانه: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** ﴿٢٦١﴾﴾ (البقرة)

فالإنفاق فى سبيل الله يردُّه الله مضاعفاً ، ومادام الله يضاعفه فهو يزيد ، لذلك لا تحزن ولا تخَفْ على مالك ، لأنك أعطيته لمقتدر قادر واسع عليم.

إنه الحق الذى يقدر على إعطاء كل واحد حسب ما يريد هو سبحانه ، إنه يعطى على قدر نية العبد وقدر إنفاقه ، إنه كثير العطاء ، وعطاؤه سبحانه غير مقطوع ولا ممنوع ، فالمنفقون أجرهم عند الله أضعاف مضاعفة ، وهو أجر ليس بقدرات البشر ، ولكنه بقدرة الله سبحانه.

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٦٨١ ، ٧٤١٩) ، ومسلم فى صحيحه (٩٩٣) وأحمد فى مسنده (٢/ ٢٤٢ ، ٣١٣ ، ٥٠٠) من حديث أبى هريرة ﷺ.

يقول الحق سبحانه : ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ (المائدة)

فالحق سبحانه عنده من السعة ما يعطى الكل ، وسبحانه واسع عليم ، والحديث القدسى يقول : « يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، قاموا فى صعيد واحد ، فسألونى ، فأعطيت كل إنسان مسألته ، ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أُدْخِل البحر .

يا عبادى .. إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه »[1]

إذن : فخزائن الله ملأى ، لا تنفد ، وسعة الحق مطلقة ، وهو سبحانه يرزق بغير حساب ، لأنه لا توجد سلطة أعلى منه تقول له : لماذا أعطيتَ فلاناً أكثر مما يستحق ؟

يرزق بغير حساب ، لأنه لا يحكمه قانون ، وإنما يعطى بطلاقة القدرة ، فخزائنه لا تنفد ، إن قدرته جَلَّ وعَلا تتسع لعطائنا جميعاً دون أن ينقص شىء من عنده ، فهو عطاء من لا ينفد ما عنده ، فهو يعطيك ويعطى الآخرين ، ولا ينقص مما عنده شىء.

والمؤمن يعلم أن عطاء الله لواحد لا يمنع أن يعطى الآخر ، ولو أعطى سبحانه كل واحد مسألته ما نقص ذلك مما عنده ، إلا كما ينقص المخيط إذا غُمِس فى البحر.

❑❑❑

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/ ٧٧ ، ١٥٤) ، والترمذى فى سننه (٢٤٩٥)، وابن ماجه فى سننه (٤٢٥٧) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.

١٠ ربانية النظام الاقتصادى فى الإسلام

الربا عملية تصطدم ابتداء مع قواعد التصور الإيمانى إطلاقًا ، ونظام يقوم على تصور آخر ، تصور لا نظر فيه لله سبحانه وتعالى، ومن ثَمَّ لا رعاية فيه للمبادئ والغايات والأخلاق التى يريد الله للبشر أن تقوم حياتهم عليها .

الربا يقوم ابتداء على أساس أن لا علاقة بين إرادة الله وحياة البشر ، والفرد حر فى وسائل حصوله على المال وفى طرق تنميته ، فلا اعتبار لأن يتأذى الملايين إذا هو أضاف إلى خزانته ورصيده ما يستطيع إضافته ، أما ديننا فغير هذا.

يقول الحق سبحانه فى كتابه الكريم : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨)** ﴾ (البقرة)

الحق سبحانه وتعالى يريد أن يطهر حياة الاقتصاد للناس طهارة تضمن حِلّ ما يطعمون ، وما يشربون ، وما يكتسبون ، حتى تصدر أعمالهم عن خليات إيمانية طاهرة مصفاة ، ذلك أن الشىء الذى يصدر عن خلية إيمانية طاهرة مصفاة لا يمكن أن ينشأ عنه إلا الخير.

ومن العجيب أن نجد القوم الذين صدَّروا لنا النظام الربوى يحاولون الآن

جاهدين أن يتخلصوا منه ، لا لأنهم ينظرون إلى هذا التخلص على أنه طهارة دينية ، ولكن لأنهم يرون أن كل شرور الحياة ناشئة عن هذا الربا .

وليست هذه الصيحة حديثة العهد بنا ، فقديماً ـ أى : من عام ألف وتسعمائة وخمسين ـ قام رجل الاقتصاد العالمى «شاخت» فى ألمانيا ، وقد رأى اختلال النظام فيها وفى العالم ، فوضع تقريره بأن الفساد كله ناشئ من النظام الربوى ، وأن هذا النظام يضمن للغنى أن يزيد غنىً.

وما دام هذا النظام قد ضمن للغنى أن يزيد غنىً ، فمن أين يزداد غنىً ؟

لا شك أنه يزداد غِنىً من الفقير ، إذن: فستئول المسألة إلى أن المال سيصبح فى يد أقلية فى الكون تتحكم فى مصائره كلها ، ولاسيما المصائر الخُلُقية ؟ لماذا؟

لأن الذين يحبون أن يستثمروا المال لا ينظرون إلا إلى النفعية المالية ، فهم يديرون المشروعات التى تحقق لهم تلك النفعية ، وهناك رجل اقتصاد آخر هو «كينز» الذى يتزعم فكرة «الاقتصاد الحر» فى العالم يقول قولته المشهورة : إن المال لا يؤدى وظيفته فى الحياة إلا إذا انخفضت الفائدة إلى درجة الصفر ، ومعنى ذلك أنه لا ربا.

وإذا ما نظرنا إلى عملية عقد الربا فى ذاتها وجدناها عقداً باطلاً ؛ لأن كل عقد من العقود إنما يوجد لحماية الطرفين المتعاقدين ، وعقد الربا لا يحمى إلا الطرف الدائن فقط ، وهناك أمر خُلُقى آخر ، وهو أن الإنسان لا يعطى ربًا إلا إذا كان عنده فائض زائد على حاجته.

ولا يأخذ إنسان من المرابى إلا إذا كان محتاجًا ، فانظروا إلى النكسة الخلقية فى الكون ، إن المعدم الفقير الذى لا يجد ما يسد جوعه وحاجته يُضطر إلى الاستدانة ، وهذا الفقير المعدم هو الذى يتكفل بأن يعطى الأصل والزائد إلى الغنى غير المحتاج.

إنها نكسة خلقية تُوجِد فى المجتمع ضِغْنًا ، وتُوجِد فى المجتمع حقدًا ، وتقضى على بقية المعروف وقيمته بين الناس ، وتنعدم المودة فى المجتمع ، فإذا ما رأى إنسان فقير إنساناً غنيًا عنده المال ، ويشترط الغنى على الفقير المعدم أن يعطيه ما يأخذه وأن يزيد عليه ، فعلى أية حال ستكون مشاعر وأحاسيس الفقير؟

كان يكفى الغنى أن يعطى الفقير ، وأن يسترد الغنى بعد ذلك ما أخذه الفقير ، ولكن الغنى المرابى يطلب من الفقير أن يسدد ما أخذه ويزيد عليه ، وكانوا يتعللون ويقولون : إن النص القرآنى إنما يتكلم عن الربا فى الأضعاف المضاعفة ، فإذا ما منعنا القيد فى الأضعاف المضاعفة لا يكون حرامًا.

أى: أنهم يريدون تبرير إعطاء الفقير مالاً ، وأن يرده أضعافًا فقط لا أضعافًا مضاعفة ، حتى لا يصير ذلك الاسترداد بالزيادة حراماً . ولهؤلاء نقول: إن الذين يقولون ذلك يحاولون أن يتلصصوا على النص القرآنى ، وكأن الله قد ترك النص ليتلصصوا عليه ويسرقوا منه ما يشاءون دون أن يضع فى النص ما يحول دون هذا التلصص.

والحق سبحانه يقول: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** (١٣٠) ﴾ (آل عمران) ، فهذا القول الحكيم لم يجئ إلا ليبين الواقع الذى كانوا يعيشونه ، ولم يستثن الله ضِعْفًا أو أضعافًا ؛ لأن الحق جعل التوبة تبدأ من أن يأخذ الإنسان رأس ماله فقط ، فلا يسمح الله لأحد أن يأخذ نصف الضعف ، أو الضعف ، أو الضعفين ، ولا يسمح بالأضعاف ولا بالمضاعفات.

وكانوا يتعللون أن اتفاق الطرفين على أى أمر يعتبر تراضيًا ويعتبر عقدًا ،

قد يكون ذلك صحيحًا إن لم يكن هناك مشرع أعلى من كل الخلق يسيطر على هذا التراضى ، فهل كلما تراضى الطرفان على شىء يصير حلالاً؟

لو كان الأمر كذلك لكان الزنا حلالاً ؛ لأنهما طرفان قد تراضيا ، وكل ذلك لا يتأتى ـ أى رضاء الطرفين ـ إلا فى الأمور التى ليس فيها تشريع صادر عن المشرع الأعلى ، وهو الله الحى القيوم .

إن الله قد فرض أمرًا يقضى على التراضى بينى وبينك ، لأنه هو المسيطر ، وهو الذى حكم فى الأمر ، فلا تراضى بيننا فيما يخالف ما شرع الله أو حكم فيه.

وإذا نظرنا نظرة أخرى فإننا نجد أن التراضى الذى يدّعونه مردود عليه ، إنه تراضٍ باطل بالفحص الدقيق والبحث المنطقى ، لماذا ؟ لأننا نقول: إن التراضى إنما ينشأ بين اثنين لا يتعدى أمرُ ما تراضيا عليه إلى غيرهما ، أما إذا كان الأمر قد تعدى ما تراضيا عليه إلى غيرهما ، فالتراضى باطل.

فهب أن واحدًا لا يملك شيئًا ، وواحد آخر يملك ألفًا ، والذى يملك ألفًا هى ملكه ، وأدار بها عملاً من الأعمال ، وحين يدير صاحب الألف عملاً ، فالمطلوب له أجر عمله ليعيش من هذا الأجر ، أما الذى لا يملك شيئًا إذا ما أراد أن يعمل مثلما عمل صاحب الألف ، فذهب إلى إنسان وأخذ منه ألفًا ليعمل عملاً كعمل صاحب الألف ، فيشترط من يعطيه هذه الألف من الأموال أن يزيده مائة حين السداد ، فيكون المطلوب من الذى اقترض هذه الألف أجر عمله كصاحب الألف الأول ، ومطلوب منه أيضًا أن يزيد على أجره تلك المائة المطلوبة لمن أقرضه بالربا .

فمن أين يأتى من اقترض ألفًا بهذه المائة الزائدة ؟ إن سلعته لو كانت

تساوى سلعة الآخر فإنه يخسر ، وإن كانت سلعته أقل من سلعة الآخر فإنها تكسد وتبور.

إذن : فلابد له من الاحتيال النكد ، وهذا الاحتيال هو أن يخلع على سلعته وصفًا شكليًا يساوى به سلعة الآخر ، ويعمد إلى إنقاص الجواهر الفعالة فى صنعة سلعته ، فيسحب منها ما يوازى المائة المطلوب سدادها للمرابى ، فمن الذى سيدفع ذلك ؟ إنه المستهلك.

إذن : فالمستهلك قد أُضير بهذا التراضى ، فهو الذى سيغرم ، لأنه هو الذى يدفع أخيراً قيمة قرض الرجل المتاجر بالسلعة وقيمة النسبة الربوية التى حددها المرابى . إذن : فالعقد بين المقترض والمرابى ـ حتى فى عرفهم ـ عقد باطل رغم أن الاثنين ـ المقترض والمرابى ـ قد اعتبرا هذا العقد تراضيًا.

إذن: فالحق سبحانه وتعالى أراد أن يشيع فى الناس الرحمة والمودة ، وأن يشيع فى الناس التعاطف ، إنه الحق سبحانه صاحب كل النعمة أراد أن يشيع فى الناس أن يعرف كل صاحب نعمة فى الدنيا أنه يجب عليه أن تكون نعمته متعدية إلى غيره ، فإن رآها المحروم علم أنه مستفيد منها ، فإذا كان مستفيداً منها فإنه لن ينظر إليها بحقد ، ولا أن ينظر إليها بحسد ، ولا يتمنى أن تزول لأن أمرها عائد إليه.

ولكن إذا كان السائد هو أن يريد صاحب النعمة فى الدنيا أن يستحوذ على كل عائد نعمته ، ولا يراعى حق الله فى مهمة النعمة ، ولا تتعدى هذه النعمة إلى غيره ، فالمحروم عندما يرى ذلك يتمنى أن تزول النعمة عن صاحبها وينظر إليها بحسد ، ويشيع الحقد ومعه الضغينة ، ويجد الفساد فرصة كاملة للشيوع فى المجتمع كله.

إن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يسيطر على الاقتصاد عناصر ثلاثة:

العنصر الأول: الرِّفْد والعطاء الخالص ، فيجد الفقير المعدم غنيًا يعطيه ، لا بقانون الحق المعلوم المفروض فى الزكاة ، ولكن بقانون الحق غير المعلوم فى الصدقة ، هذا هو الرغد.

العنصر الثانى : يكون بحق الفرض ، وهو الزكاة.

العنصر الثالث : هو بحق القرض ، وهو المداينة.

إذن : فأمور ثلاثة هى التى تسيطر على الاقتصاد الإسلامى ، إما تطوع بصدقة ، وإما أداء لفروض من زكاة ، وإما مداينة بالقرض الحسن ، وذلك هو ما يمكن أن ينشأ عليه النظام الاقتصادى فى الإسلام ، ولننظر إلى قول الحق سبحانه وتعالى حين عرض هذه المسألة وبشَّع هيئة الذين يأكلون الربا بأنهم لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه ويصرعه الشيطان من المسِّ ، فيقول سبحانه : ﴿ **الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ... ﴿٢٧٥﴾** ﴾ (البقرة)

فكأن الشيطان قد مسَّ التكوين الإنسانى مساً أفسد استقامة ملكاته ، فالتكوين الإنسانى له استقامة ملكات مع بعضها البعض ، فكل حركة لها استقامة ، فإذا ما مسَّه الشيطان فسد تآزر الملكات ، فملكاته النفسية تكون غير مستقيمة وغير منسجمة مع بعضها البعض ، فتكون حركته غير رتيبة وغير منطقية.

وقد أوضح الحق سبحانه وتعالى تخبطهم هذا ، فقال تعالى : ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ... ﴿٢٧٥﴾** ﴾ (البقرة) ، فهل الكلام فى البيع ،

أو الكلام فى الربا ؟ إن الكلام فى الربا ، وكان المنطق يقتضى أن يقول : «الربا كالبيع» ، فما الذى جعلهم يعكسون الأمر؟

إن النص القرآنى هنا يوحى بالتخبط حتى فى القضية التى يريدون أن يحتجوا بها ، كأنهم قالوا: ما دمت تريد أن تحرم الربا ، فالبيع مثل الربا ، وعليك تحريم البيع أيضًا.

وكان القياس أن يقولوا : «إنما الربا مثل البيع» ، لكن الحق سبحانه أراد أن يوضح لنا تخبطهم فجاء على لسانهم : إنما البيع مثل الربا ، فإن كنتم قد حرَّمتم الربا فحرِّموا البيع ، وإن كنتم قد حللتم البيع فَأحلُّوا الربا ، إنهم يريدون قياسًا إما بالطرد ، وإما بالعكس.

فقال الله تعالى القول الفصل الحاسم: ﴿ **وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ ... ﴿٢٧٥﴾** ﴾ (البقرة)

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : «لعن رسول الله ﷺ آكل الربا وموكله» .

والحق سبحانه وتعالى يمحق الزائد ، فهو سبحانه يقول : ﴿ **يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾** ﴾ (البقرة)

فالربا الذى تظنه زيادة هو محْقٌ ، والذى تظنه نقصًا من مالك بتأديتك للزكاة هو فى الحقيقة بركة وزيادة ونماء.

فالمرابى يرابى ليزيد ماله ، ولكن الله يقابله بالنقصان ﴿ **يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا ... ﴿٢٧٦﴾** ﴾ (البقرة) ، لماذا؟ قالوا: لأن المعطى غنىٌّ واجد ، لديه فائض من المال يعطى منه ، أما الآخذ فمحتاج ، فكيف نطلب من المحتاج أن يزيد فى مال الواجد غير المحتاج؟

وكيف تكـون نظرة المحتاج إليك حين يعلم أن عندك مالاً يزيد عن حاجتـك ، ومع ذلك ترفض أن تقرضه القـرض الحسن ، بل تشترط عليه الزيادة ، فتأخذ الزيادة منه وهو محتاج؟

ثم افرض أننى أخذت هذا القرض لأُثمره وأنميه فخسر ، أليس كافيًا أن أخسر أنا عملى ، وأن يضيع مجهودى؟ أمن العدل أن أخسر عملى ، ثم أكون ضامنًا للزيادة أيضًا؟ هذه ليست من العدالة ، لأن شرط العقد أن يحمى مصلحة الطرفين ، أما عقد الربا فلا يحمى إلا مصلحة الدائن.

ونحن نرى حتى التشريعات الوضعية فى الاقتصاد إذا أعطى البنك مالاً لشخص لعمل مشروع مثلاً ثم خسر وأرادوا تسوية حالته ، أول شىء فى إجراءاتهم أن يُسقطوا عنه الفوائد.

وهذا يوافق شرع الله فى قوله تعالى : ﴿**وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾**﴾ (البقرة) ، فإنْ أردتم أن تتوبوا فلا تأخذوا إلا رءوس أموالكم ، أما ما يزيد على هذا فليس لكم حق فيه.

وهكذا وضع الله نهاية لأسلوب التعامل ، حتى يتطهر المال من ذلك الربا ، فإذا قال الحق : ﴿ **فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾** ﴾ (البقرة)، فمعنى هذا أنه سبحانه يبين لنا بهذا القول أنه لا حَقَّ للمرابين فى ضِعْف ولا ضعفين ، ولا فى أضعاف مضاعفة.

وحينئذ لا تظلمون من رابيتم ، فلا تأخذوا منهم زائداً عن رأس المال.

إن المشرع يريد أن يمنع الظالم السابق فيُنهى ظلمه ، وأن يسعف المظلوم اللاحق فيعطيه حقه.

وكثير من النظريات التى تأتى لتقلب نظامًا فى مجتمع ما تعمد إلى الطائفة التى ظلمت ، فلا تكتفى بأن تكفها عن الظلم ، ولكن تُمكِّن للمظلوم أن يظلم من ظلمه ، وذلك هو الإجحاف فى المجتمع ، وهذا ما يجب أن يتنبه إليه الناس جيداً ، لأن الله الذى أنصفك أيها المظلوم من ظالمك ، فمنع ظلمه لك ، هنا يجب أن تحترم حكمه حينما قال : ﴿ **فَلَهُ مَا سَلَفَ ... ﴿٢٧٥﴾** ﴾ (البقرة) ، وبهذا القول انتهت القضية.

ويستأنف سبحانه الأمر بعدالة جديدة تجمعك وتجمعه على قدم المساواة بدون ظلم منك أيها المظلوم سابقًا بحجة أنه ظلمك ، والمجتمعات حين تسير على هذا النظام ﴿ **لاَ تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾** ﴾ (البقرة)، إنما تسير على نمط معتدل لا على ظلم موجه ، فحين نعيب على قوم أنهم ظلموا ، ثم نأتى بقوم لنجعلهم يظلمون ، لا ، إن الجميع على قدم المساواة من الآن .

وفساد أى نظام فى المجتمع يأتى من توجيه الظلم من فئة جديدة إلى فئة قديمة ، فبذلك يظل الظلم قائماً ، طائفة ظلمت ، وتأتى طائفة كانت مظلومة لتظلم الطائفة الظالمة سابقًا ، نقول لهم : ذلك ظلم مُوجَّه ، ونحن نريد أن تنتظم العدالة وتشمل كل أفراد المجتمع بأن يأخذ كل إنسان حقه ، فالذى ظلم سابقًا منعناه عن ظلمه ، والمغلوب سابقًا أنصفناه ، وبذلك يصير الكل على قدم المساواة ، ليسير المجتمع مسيرة عادلة تحكمه قضية إيمانية ، إننا لا نكافئ من عصى الله فينا بأكثر من أن نطيع الله فيه .

وقول الحق سبحانه : ﴿ **وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾** ﴾ (البقرة) أى : اتركوا ودعوا وتناسوا واطلبوا الخير من الله فيما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين حقًا بالله ، كأن الله أراد أن يجعلها تصفية فاصلة ، يولد من بعدها المؤمن طاهراً نقياً .

إنه أمر من الحق : دعـوا الربا الذى لم تقبضوه ؛ لأن الذى قبضتموه أمره ﴿ **فَلَهُ مَا سَلَفَ ... ﴿٢٧٥﴾** ﴾ (البقرة) والذى لم تقبضوه اتركوه ﴿**وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾** ﴾ (البقرة)

وقد حرَّم رسول الله ﷺ الربا وقال فى حجة الوداع : «ربا الجاهلية موضوع ، وأول رِبًا أضع رِبَانَا ، ربا عباس بن عبد المطلب ، فإنه موضوع كله»(١) .

وتلك سمة التشريع السماوى ، فالتشريع البشرى يحمى به صاحبه أقاربه من التقنين ، لكن التشريع السماوى يفرض تطبيقاته أولاً على الأقارب ، فالحاكم المسلم عليه أن يعلن للمحكومين أن القوانين إنما تُطبق عليه أولاً وعلى من يعول.

ونحن نجد أن رسول الله ﷺ فى معركة بدر أخرج أهل بيته ليحاربوا ؛ لأنه لو لم يُخرِج أحداً من أهل بيته لقال واحد من الكفار: إنه يحمى أهل بيته ، ولو أن أجر الاستشهاد هو الجنة ، فلماذا يقدم الأباعد ولا يقدم أحبابه للقتال؟

لكن ها هو ذا رسول الله ﷺ يقدم أقاربه وأحبابه ، فهو العارف من ربه بأمر الشهادة ، وكيف أنها تقصر على الإنسان متاعب الحياة وتدخله الجنة ، هكذا كانت المحاباة فى صدر الإسلام ، إنها محاباة فى الباقى ، ولم تكن كمحاباة الحمقى فى الفانى.

وحين يعلمنا رسول الله ﷺ ذلك ويضرب على أيدى المرابين ، فهذه هى الحرب التى يجب أن تقوم ، حرب من الله المالك القادر على المحاربة.

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٢١٨) كتاب الحج ـ باب حجة النبى ﷺ (١٩).

وقد قال تعالى : ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾ (الروم)

وقد شرع الحق سبحانه الصدقة والزكاة طُهْرةً للمال ، فالمال قد يزيد فيه شىء فيه شبهة ، فالزكاة تطهره ، وقد يخيل إليك أنك حين تأخذ من المال فهو ينقص ، عكس الربا الذى يزيد المال ، فالربا مثلاً يحقق زيادة للمائة جنيه فتصبح مائة وعشرة مثلاً ، أما المزكّى فالمائة جنيه تصير سبعة وتسعين ونصفًا.

والسطحى يرى أن الزكاة أنقصت المال ، وأن الربا يزيده ، ولكن هذا بمقاييس البشر ، لا بمقاييس من يملك الأشياء ، فالزكاة التى تعتبرونها نقصًا تُنمى ، والربا الذى تعتبرونه يُنمى إنما ينقص ، والحق سبحانه يقول : ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾ (البقرة)

والصدقة أيضًا تطهير للآخذ ، وقد يقال : كيف يكون هذا وهو لم يذنب ذنبًا يحتاج إلى تطهير ، بل هى مُعطى له لأنه محتاج؟ نقول : إن الآخذ حين يأخذ من مال غيره وهو عاجز عن العمل فهو يتطهر من الحقد على ذى النعمة ، لأنه وصله بعض من المال الذى عند ذى النعمة ، فلا يحقد عليه ولا يحسده ، فهو إن رأى عنده خيراً دعا له بالزيادة لأن بعضًا من الخير يعود عليه.

والفلاحون فى ريف مصر يهدون بعضهم بعضًا من لبن ماشيتهم ، أو بعضًا من الخير الخارج من لبنها ، وساعة أن تمر إحداها على أهل القرية يدعون الله بحمايتها ، وهكذا تتطهر نفس الفقير من الحقد والحسد.

هذا عن التطهير ، فماذا عن التزكية والنماء ؟ إن الفقير ساعة أن يرى نفسه فقيراً ، ويرى أن المجتمع الإيمانى يقوم برعايته ولا يتركه وحيداً ، ويتسابق أهل الخير لنجدته ، فنفسه تنمو بالاطمئنان ، لأنه فى مجتمع إيمانى.

إذن: فقوله الحق : ﴿ **تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا... ﴿١٠٣﴾** ﴾ (التوبة) راجع لكل العناصر فى الآية : فما دامت هناك فى هذه الآية عناصر ، فضرورى أن يعود التطهير والتزكية عليها ، وإنها تطهر وتزكى المأخوذ منه ، صاحب المال ، وكذلك تطهـر وتزكى المال المأخوذ ، وأيضًا تطـهر وتزكى المأخوذ له وهو الفقير ؛ لأن التطهير معناه إزالة قذر ، والتزكية نماء.

١١ الإسلام يحمى المجتمع من الوقوع فى أكل الحقوق

الإسلام يصنع القلوب التى يُشرِّع لها ، ويصنع المجتمع الذى يُقنِّن له ، صنعة إلهية متكاملة متناسقة ، تربية وتشريع ، وتقوى وسلطان ومنهج للإنسان من صنع خالق الإنسان.

لم يفرض ديننا السمح القويم علينا إلا كل ما يرفع عنا الأغلال ، ويحط عنّا الأثقال ، ويفيض علينا الرحمة والهدى واليُسْر والاستقامة

يقول الحق سبحانه : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ... ﴿٢٨٢﴾** ﴾ (البقرة)

فالحق سبحانه يأمركم أن تُوثِّقوا الدَّيْن ؛ لأنكم لا تحمون مال الدائن فحسب ، بل تحمون المدين نفسه ؛ لأنه حين يعلم أن الدين موثَّق عليه ومكتوب عليه فلن ينكره ، لكن لو لم يكن مكتوبًا فقد تُحدِّثه نفسه أن ينكره.

فالحق يحمى المقترض من نفسه ؛ لأنه إذا علم أن الدَّيْن مكتوب يحاول جاهداً أن يتحرك فى الحياة ليسد هذا الدين ، ويستفيد المجتمع من حركته أيضًا.

وعندما يُكتب القرض فهذا أمر دافع للسداد وحاثٌّ عليه ، لكن إن لم يُكتب القرض فقد يأتى ظرف من الظروف ويتناسى القرض ، ولو حدث ذلك

من شخص فلن تمتد له يد من بعد ذلك بالمعاونة فى أى أزمة ، فيريد الحق أن يديم الأسباب التى تتداول فيها الحركة.

لذلك يقال فى الأمثلة العامية : من يأخذ ويعطى يصير المال ماله ، ويكون مال الدنيا كلها معه ، لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ **وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ** ﴾ (البقرة) ، وفى ذلك حماية للنفس من الأغيار ، فالحق سبحانه حين يأمر بتوثيق الدَّيْن وإن كان فى ظاهر الأمر حماية للدائن ، لكنه فى باطن الأمر يحمى سبحانه المدين ؛ لأن هناك فرقًا بين ساعة التحمُّل للحكم ، وساعة أداء الحكم.

مثال ذلك : حين يأتيك إنسان قائلاً : أنا عندى ألف جنيه وخائف أن يضيع منى ، فخذه أمانة عندك إلى أن أحتاج إليه ، وبذلك يكون هذا الإنسان قد استودعك أمانة ولا يوجد إيصال أو شهود ، والأمر مردود إلى أمانة المودَع عنده ، إن شاء أنكر ، وإن شاء أقرَّ ، ونجد من يقول لهذا الإنسان : هات ما عندك ، يقول ذلك وفى ذمته ونيته أن صاحب الألف جنيه حين يأتى ليطلبه يعطيه له ، إنه يعد ذلك ساعة التحمل ، لكنه لا يضمن نفسه ساعة الأداء ، فقد تأتى له ظروف صعبة ساعة الأداء فيتعلل بالحجج ليبعد صاحب المال عنه.

إذن: هناك فرق بين حالة واستعداد حامل الأمانة ساعة التحمل ، وساعة الأداء لهذه الأمانة ، والمؤمن الحق هو من يتذكر ساعة التحمل والأداء معًا ، إن بعض الناس يرفض تحمل الأمانة ليزيل عن نفسه عبء الأداء.

وقول الحق سبحانه : ﴿ **إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ... ﴿٢٨٢﴾** ﴾ (البقرة) هو رفع لحرج الأحباء من الأحباء ، وهو تشريع سماوى ، فلا تأخذ أحدًا الأريحية ، فيقول لصاحبه : «نحن أصحاب» ، فقد يموت واحد منكما فإن لم يكتب الدَّيْن حرجاً ، فماذا يفعل الأبناء أو الأرامل أو الورثة؟

إذن : فإلزام الحق بكتابة الدَيْن هو تنفيذ لأمر من الله يحقق رفع الحرج بين الأحباء ، ويظن كثير من الناس أن الله يريد بالكتابة حماية الدائن ، لا ، إن المقصود بذلك والمهم هو حماية المدين ، لأن المدين إن علم أن الدَّيْن موثق عليه حرص أن يعمل ليؤدى دينه ، أما إذا كان الدين غير موثق فمن الجائز أن يكسل عن العمل وعن سداد الدَيْن.

وبذلك يحصل هو وأسرته على حاجته مرة واحدة ، ثم يضن المجتمع الغنى على المجتمع الفقير فلا يقرضه ، ويأخذون عجز ذلك الإنسان عن السداد ذريعة لذلك ، ويقع هذا الإنسان الذى لم يُؤَدِّ دينه فى دائرة تحمل الوزر المضاعف ؛ لأنه ضيَّق باب القرض الحسن.

إن الله يريد أن يسير دولاب الحياة الاقتصادية عند من لا يملك ، لأن من يملك يستطيع أن يُسيِّر حياته ، أما من لا يملك فهو المحتاج ؛ ولذلك فهناك مَثَلٌ فى الريف المصرى يقول: من يأخذ ويعطى يصير المال ماله ، إنه يقترض ويسدد ؛ لذلك يثق فيه الناس ، ويرونه أمينًا ، ويرونه مُجدًّا ، ويرونه مخلصًا ، ويعرفون عنه أنه إذا أخذ وفّى ، فكل المال يصبح ماله.

إذن : فالله سبحانه بكتابة الدَيْن يريد حماية حركة الحياة عند غير الواجد ؛ لأن الواجد فى غير حاجة إلى القرض ؛ لذلك جاء الأمر من الحق سبحانه :

﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ... ﴿٢٨٢﴾﴾ (البقرة)

ومن الذى يكتب الدَّيْن؟

انظر الدقة : لا أنت أيها الدائن الذى يكتب ، ولا أنت أيها المدين ، ولكن لا بُد أن يأتى كاتب غير الاثنين ، فلا مصلحة لهذا الثالث من عملية الدَّيْن.

﴿ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ .. ﴿٢٨٢﴾﴾ (البقرة)

وفى ذلك إيضاح بأن الإنسان الذى يعرف الكتابة إن طُلب منه أن يكتب دينًا ألا يمتنع عن ذلك ، لماذا ؟ لأن الآية ـ آية الدَّيْن ـ قد نزلت ، وكانت الكتابة عند العرب قليلة ، كان هناك عدد قليل فقط هم الذين يعرفون الكتابة ، فكان هناك طلب شديد على من يعرف الكتابة.

ولكن إنْ لم يُطلب أحد من الذين يعرفون الكتابة أن يكتب الدَّيْن فماذا يفعل؟ إن الحق يأمره بأن يتطوع ، وفى ذلك يأتى الأمر الواضح ﴿ **فَلْيَكْتُبْ** ﴾ (البقرة) ؛ لأن الإنسان إذا ما كان هناك أمر يقتضى منه أن يعمل ، والظرف لا يحتمل تجربة ، فالمشرع يلزمه أن يندب نفسه للعمل.

وما دامت الكتابة للتوثيق فى الدَّيْن ، فمن الضعيف؟ إنه المدين ، والكتابة حجة عليه للدائن ؛ لذلك يحدد الله الذى يملل : الذى عليه الدَّيْن ، أى : يملى الصيغة التى تكون حجة عليه ﴿ **وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ .. ﴿٢٨٢﴾** ﴾ (البقرة).

ولماذا لا يملى الدائن ؟ لأن المدين عادة فى مركز الضعيف ، فلعل الدائن عندما تأتى لحظة كتابة ميعاد السداد فقد يقلل هذا الميعاد ، وقد يخجل المدين أن يتكلم ويصمت ، لأنه فى مركز الضعيف . ويختار الله الذى فى مركز الضعف ليملى صيغة الدَّيْن ، يملى على راحته ، ويضمن ألا يُؤخذ بسيف الحاجة فى أى موضع من المواضع.

لكن ، ماذا نفعل عندما يكون الذى عليه الدَّيْن سفيهاً أو ضعيفًا ، أو لا يستطيع أن يُملَّ هو ؟

إن الحق سبحانه يضع القواعد : ﴿ **فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ .. ﴿٢٨٢﴾** ﴾ (البقرة) ، والسفيه هو البالغ مبلغ الرجال إلا أنه لا يمتلك أهلية التصرف ، والضعيف هو الذى

لا يملك القدرة التى تُبلغه أن يكون ناضجًا النضج العقلى للتعامل ، كأن يكون طفلاً صغيرًا ، أو شيخًا بلغ من الكِبَر حتى صار لا يعلم من بعد علمه شيئًا ، أو لا يستطيع أن يُمل. أى: أخرس . فيقوم بالإملاء الولى أو القيّم أو الوصىّ.

ويأتى التوثيق الزائد بقوله تعالى: ﴿ **وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ .. ﴿٢٨٢﴾** ﴾ (البقرة)

ولننظر إلى الدقة فى التوثيق عندما يقول الحق : ﴿ **وَاسْتَشْهِدُوا** ﴾ فستشهد ونكتب ؛ لأنه سبحانه يريد بهذا التوثيق أن يُؤمِّن الحياة الاقتصادية عند غير الواجد ؛ لأن الحاجة عندما تكون غير مؤمَّنة عند غير الواجد ، فالدولاب يمشى وتسير حركة الحياة الاقتصادية ؛ لأن الواجد هو القليل ، وغير الواجد هو الكثير ، فكل فكر جاد ومفيد يحتاج إلى مائة إنسان ينفذون التخطيط .

إن الجيب الواحد الذى يصرف يحتاج إلى مائة لينفذوا ، ولهذا تكون الجمهرة من الذين لا يجدون ، وذلك حتى يسير نظام الحياة ؛ لأن الله لا يريد أن يكون نظام الحياة تفضُّلاً من الخلق على الخلق ، إنما يريد الله نظام الحياة نظاماً ضرورياً ، فالعامل الذى لا يعول أسرة قد لا يخرج إلى العمل ، لذلك فالحق سبحانه يربط خروج العامل بحاجته.

إنه يحتاج إلى الطعام ورعاية نفسه وأسرته فيخرج اضطراراً إلى العمل ، وبتكرار الأمر يعشق عمله ، وحين يعشق العمل فهو يحب العمل فى ذاته ، وبذلك ينتقل من الحاجة إلى العمل إلى حب العمل فى ذاته ، وإذا ما أحب العمل فى ذاته فعجلة الحياة تسير.

والحق سبحانه حين يحدد الشهود يقول : ﴿**وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ .. ﴿٢٨٢﴾**﴾ (البقرة) ، فلم يقل الحق سبحانه « شاهدين » بل قال ﴿ شهيدين﴾ لأن مطلق شاهد قد يكون زوراً ؛ لذلك جاء الحق بصيغة المبالغة « شهيد» ؛ كأنه شاهد عرفه الناس بعدالة الشهادة حتى صار شهيداً.

إنه إنسان تكررت منه الشهادة العادلة ، واستأمنه الناس على ذلك ، وهذا دليل على أنه شهيد.

وإن لم يكن هناك شهيدان من الرجال ، فالحق يحدد لنا ﴿ **فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ .. ﴿٢٨٢﴾**﴾ (البقرة)

إن الحق سبحانه وتعالى قد طلب منا على قدر طاقتنا ، أى: من نرضى نحن عنهم ، وعلَّل الحقُّ مجيء المرأتين فى مقابل رجل بما يلى ﴿ **أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ .. ﴿٢٨٢﴾**﴾ (البقرة) ؛ لأن الشهادة هى احتكاك بمجتمع لتشهد فيه وتعرف ما يحدث ، والمرأة بعيدة عن كل ذلك غالبًا.

إن الأصل فى المرأة ألا علاقة لها بمثل هذه الأعمال ، وليس لها شأن بهذه العمليات ، فإذا ما اضطرت الأمور إلى شهادة المرأة فلتكن الشهادة لرجل وامرأتين ؛ لأن الأصل فى فكر المرأة أنه غير مشغول بالمجتمع الاقتصادى الذى يحيط بها ، فقد تضل أو تنسى إحداهما ، فتُذكِّر إحداهما الأخرى ، وتتدارس كلتاهما هذا الموقف ، لأنه ليس من واجب المرأة الاحتكاك بجمهرة الناس ، وبخاصة ما يتصل بالأعمال.

وبعد ذلك يقول الحق : ﴿ **وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا .. ﴿٢٨٢﴾**﴾ (البقرة) ، فكما قال الحق عن الكاتب ألا يمتنع عن توثيق الدَّيْن ، كذلك الشهادة على

هذا الدَّيْن ، وكيف تكون الشهادة ، هل هى فى الأداء أو التحمُّل ؟ إن هنا مرحلتين : مرحلة تحمُّل ، ومرحلة أداء.

وعندما نطلب من واحد قائلين : تعال اشهد على هذا الدَّيْن ، فليس له أن يمتنع ، وهذا هو التحمُّل . وبعدما وثَّقنا الدَّيْن ، وسنطلب هذا الشاهد أمام القاضى ، والوقوف أمام القاضى هو الأداء ، وهكذا لا يأبى الشهداء إذا ما دُعُوا تحملاً أو أداء.

لكن الحق سبحانه وتعالى يعلم أن كل نفس بشرية لها مجال حركتها فى الوجود ، ويجب ألا تطغى حركة حدث على حدث ، فالشاهد حين يُستدعى ـ بضم الياء ـ ليتحمل أولاً ، أو ليؤدى ثانياً ، ألاَ تتعطل مصالحه ؟ إن مصالحه ستتعطل لأنه عادل ولأنه شهيد ؛ لذلك يضع الله لذلك الأمر حَداً ، فيقول :

﴿ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ .. ﴿٢٨٢﴾ ﴾ (البقرة)

إذن : فالشهادة هنا تتطلب أن نحترم الشاهد ، فإن كان عند الشاهد عمل أو امتحان أو صفقة أو غير ذلك ، فلنا أن نقول للشاهد : إما أن تتعين فى التحمل حيث لا يوجد من يُوثق به ويطمئن إليه ، أما فى الأداء فأنت مضطر.

إن الشاهد يمكنه أن يذهب إلى أمره الضرورى الذى يجب أن يفعله ، فلا يطغى حدث على حدث ؛ لذلك علينا أن نبحث عن شاهد له قدرة السيطرة على عمله بدرجة ما ، وإن لم نجد غيره ، فماذا يكون الموقف؟

لقد قال الحق : ﴿ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ .. ﴿٢٨٢﴾ ﴾ (البقرة)

إذن : فعلينا أن نبحث له عن جُعل يعوض عليه ما فاته ، فلا نلزمه أن يعطل عمله ، وإلا كانت عدالته وبالاً عليه ؛ لأن كل إنسان يُطلب للشهادة تتعطل أعماله ومصالحه ، والله لا يحمى الدائن والمدين ليضر الكاتب أو الشهيد.

والكاتب والشهيد شخصان لهما فى الحياة حركة ، ولكل منهما عمل يقوم به ليؤدى مطلوبات الحياة ، فإذا عُلِم أنه كاتب أو أنه يشهد بأنه عادل ، عند ذلك يتم استدعاؤه فى كل وقت من أصحاب المصلحة فى المداينة ، وربما تعطلت مصالح الكاتب أو الشهيد.

ويريد الله أن يضمن لذلك الكاتب أو الشهيد ما يُبقِى على مصلحته ؛ ولذلك أخذت القوانين الوضعية من القرآن الكريم هذا المبدأ ، فهى إن استدعت شاهداً من مكان ليشهد فى قضية فإنها تقوم له بالنفقة ذهاباً وبالنفقة إياباً ، وإن اقتضى الأمر أن يبيت فله حق المبيت وذلك حتى لا يُضار ، وهو يؤدى الشهادة ، وحتى لا يتعطل الشاهد عن عمله ، أو أن يصرف من جيبه.

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ **وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ ..** ﴿٢٨٢﴾﴾ (البقرة) أى: إنْ تفعلوا الضرر من هذا أو من ذاك ، فإنه فسوق بكم ، إنه سبحانه يحذر أن يقع الضرر من الكاتب أو الشهيد ، أو أن يقع الضرر على الكاتب أو الشهيد ، ففعل الضرر فسوق ، أى : خروج عن الطاعة.

﴿ **وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴿٢٨٢﴾**﴾ (البقرة) ، وهذا مبدأ إيمانى يجب أن نأخـذه فى كل تكليف من الله ، فإن التكاليف إن جاءت من بشر لبشر ، فأنت لا تنفذ التكليف من البشر إلا إن أقنعك بحكمته وعلَّته ، لأن التكليف يأتى من مساوٍ ، ولا توجد عقلية أكبر من عقلية ، وقد تقول لمن يكلفك : ولماذا أكون تبعًا لك وأنت لا تكون تبعًا لى؟ إنك إذا أردت أن تكلفنى بأمر من الأمور وأنت مساوٍ لى فى الإنسانية والبشرية وعدم العصمة ، فلابُدَّ أن تقنعنى بحكمة التكليف.

أما إن كان التكليف من أعلى وهو الحق سبحانه وتعالى ، وهو الذى آمنا بقدرته وعلمه وحكمته وتنزُّهه عن الغرض العائد عليه ، فالمؤمن فى هذه الحالة يأخذ الأمر قبل أن يبحث فى الحكمة ؛ لأن الحكمة فى هذا الأمر أنه صادر من الله ، وحين ينفذ المؤمن التكليف الصادر من الله فسيعلم سر هذه الحكمة فيما بعد ، فأسرار الحِكَم عند الله تأتى للمؤمن بعد أن يُقبل على تنفيذ التكاليف الإيمانية .

إن الله سبحانه يعد المؤمنين أنهم عندما يتقونه فإنه يجعل لهم دلائل تبين لهم الحق من الباطل ، ويستر عنهم السيئات ، ويغفر لهم ، لماذا ؟ لأن الله الذى يُعلِّمنا هو الحق سبحانه العليم بكل شىء ، وعلم الله ذاتى ، أما علم الإنسان فقد يكون أثراً من ضغط الأحداث عليه فيفكر الإنسان فى تقنين شىء يخرجه مما يكون فيه من شر ، ولكن علم العليم الأعلى سابق على ذلك لأنه علم ذاتى.

وقد علمنا أن الله سبحانه وتعالى قد أعطى الدِّين هذه العناية ليضمن للحياة حركتها الطاهرة ، حركتها السليمة ؛ لأن المعدم لا وسيلة له فى حركة الحياة إلا أمور ثلاثة :

الأمر الأول: الرفد : أى عطاء تطوعى يستعين به على حركة الحياة.

الأمر الثانى: الفرض الذى فرضه الله فى الزكاة.

الأمر الثالث: القرض الذى شرعه.

فعندما لا يجد المؤمن المعدم الرفد أو الفرض ، فماذا يكون بعد ذلك ؟ إنه القرض . إذن : فالقرض هو المفزَع الثالث للحركة الاقتصادية عند المعدمين ، وعرفنا أن القرض عند الله يفوق ويعلو الصدقة فى الثواب ، لأن الصدقة حين

تتصدق بها تكون قد خرجتْ من نفسك من أول الأمر ، فلا مشغولية لذهنك بعد ذلك ، ولكن القرض نفسُك تكون متعلقة به ؛ لأنك لا تزال مالكًا له ، وكلما صبرتَ عليه أخذت ثوابًا من الله على كل صبرة تصبرها على المدين.

يقول تعالى : ﴿ **وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ** (٢٨٠) ﴾ (البقرة)

أى : إن وُجِد إنسان ليس عنده قدرة على السداد ، فنظرة من الدائن إلى ميسرة ، أى : إلى أن يتيسر ، ويكون رأس المال فى هذه الحالة «قرضًا حسنًا» ، وكلما صبر عليه لحظة أعطاه الله عليها ثوابًا.

ولنا أن نعرف أن ثواب القرض الحسن أكثر من ثواب الصدقة ؛ لأن الصدقة حين تعطيها فقد قطعت أمل نفسك منها ، ولا تشغل بها ، وتأخذ ثوابًا على ذلك دفعة واحدة ، لكن القرض حين تعطيه فقلبك يكون متعلقًا به ، فكلما يكون التعلق به شديداً ، ويهب عليك حب المال وتصبر فأنت تأخذ ثوابًا.

لذلك يجب أن تلاحظ أن القرض حين يكون قرضًا حسنًا والمقترض معذور بحق ، لأن هناك فرقًا بين معذور بحق ، ومعذور بباطل ، المعذور بحق هو الذى يحاول جاهداً أن يسدد دَيْنه ، ولكن الظروف تقف أمامه وتحول دون ذلك ، أما المعذور بباطل فيجد عنده ما يسد دَيْنه ، ولكنه يماطل فى السداد ويبقى المال ينتفع به وهو بهذا ظالم.

والرسول ﷺ يأتى للمعسر ويعامله معاملة الأريحية الإيمانية ، فيقول : «من أنظر معسرًا أو وضع عنه أظله الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله»(١).

---

(١) أحمد فى مسنده (٢ / ٣٥٩) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.

ومعنى «أنظر» أى : أمهله وأخَّر أخْذ الدَّيْن منه فلا يلاحقه ، فلا يحبسه فى ديْنه ، فلا يطارده ، وإن تسامى فى اليقين الإيمانى يقول له : «اذهب ، الله يعوض علىّ وعليك» ، وتنتهى المسألة.

لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ **وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ** (٢٨٠) ﴾ (البقرة)

والثمرة هى حُسْن الجزاء من الله ، فإما أن تُنْظِر أو تُؤخِّر ، وإما أن تتصدق ببعض الدَّيْن أو بكل الدَّيْن ، وأنت حر فى أن تفعل ما تشاء ، فانظروا دقة الحق عند تصفية هذه القضية الاقتصادية التى كانت الشغل الشاغل للبيئة الجاهلية.

١٢ الحذر من طاعة أهل الكتاب

إن طاعة أهل الكتاب والتلقي عنهم ، واقتباس مناهجهم وأوضاعهم تحمل ابتداء معني الهزيمة الداخلية والتخلي عن دور القيادة الذي من أجله أنشئت الأمة المسلمة.

ولا يحرص أهل الكتاب علي شيء حرصهم علي إضلال هذه الأمة عن عقيدتها ، فهذه العقيدة هي صخرة النجاة ، وخط الدفاع ، ومصدر القوة الدافعة للأمة المسلمة.

يقول الحق سبحانه :﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ (آل عمران)

إن الحق سبحانه ينبه الفئة المؤمنة إلى أن الذين يكفرون بآيات الله لن يهدأ بالهم ما دمتم أنتم ـ أيها المؤمنون ـ على الجادة وما دمتم مستقيمين ، ولن يهدأ للكافرين بآيات الله بال إلا أن يشككوا المؤمنين فى دينهم ، وأن يبغوها عوجًا ، وأن يُكفِّروهم من بعد إسلامهم.

وهذه قضية يجب أن ينتبه لها الذين آمنوا ، لأن الذين يبغون الأمر عوجًا قد ضلوا وأضلوا ، وهم يشهدون على هذا ، ويعلمون أن الله غير غافل عما يعملون ، فماذا يكون موقف الطائفة المؤمنة ؟ إن الحق سبحانه يوضحه بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ

كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾ (آل عمران)

إن أهل الكتاب يحاولون أن يصدوا المؤمنين عن سبيل الله ، وليس المقصود بالصدِّ أن هناك من يمنع المؤمنين من الإيمان ، لا بل هى محاولة من أهل الكتاب لإقناع المؤمنين بالرجوع والارتداد عن الإيمان الذى اعتنقوه ، فالمؤمنون هم الطائفة التى تلتزم بالتكليف من الله.

لذلك يحذرهم الحق سبحانه بقوله : ﴿ **إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾** ﴾ (آل عمران)

الحق يحدد قسمًا من الذين أوتوا الكتاب ، وذلك تأريخ بنزاهة وصدق ، وحق ودون تحامل ، كأن الحق سبحانه يبلغنا أن هناك فريقًا من أهل الكتاب سيسلكون الطريق السوى ويجيئون إلى المسلمين أرسالاً وجماعات وأفرادًا مع الإسلام ، فالحق لا يتكلم عن كل الذين أوتوا الكتاب.

لذلك يقول الحق :﴿ **إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ... ﴿١٠٠﴾** ﴾ (آل عمران) إن الحق يؤرخ وهو يحمى الحقيقة.

والحق سبحانه يقول فى آية أخرى : ﴿ **وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ... ﴿١٢٠﴾** ﴾ (البقرة)

فقد كان اليهود يدخلون على رسول الله ﷺ مدخل لؤم وكيد ، فيقولون هادنا ، أى: قل لنا ما فى كتابنا حتى ننظر إذا كنا نتبعك أم لا، يريد الله ـ تبارك وتعالى ـ أن يقطع على اليهود سبيل الكيد والمكر برسول الله ﷺ بأنه لا اليهود ولا النصارى سيتبعون ملتك ، وإنما هم يريدون أن تتبع أنت ملتهم ، أنت تريد أن يكونوا معك وهم يطمعون أن تكون معهم ، فقال الله سبحانه ﴿**وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ... ﴿١٢٠﴾** ﴾ (البقرة)

نلاحظ هنا تكرار النفى ، وذلك حتى نفهم أن رضا اليهود غير رضا

النصارى ، ولو قال الحق تبارك وتعالى : ولن ترضى عنك اليهود والنصارى بدون لا .. لكان معنى ذلك أنهم مجتمعون على رضا واحد أو متفقون ، ولكنهم مختلفون بدليل أن الله تعالى قال : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ ...﴿١١٣﴾﴾ (البقرة)

إذن : فلا يصح أن يقال فلن ترضى عنك اليهود والنصارى ، والله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لن ترضى عنك اليهود ، ولن ترضى عنك النصارى ، وإنك لو صادفت رضا اليهود فلن ترضى عنك النصارى ، وإن صادفت رضا النصارى فلن ترضى عنك اليهود .

ولكن ، ما الذى يعصمنا من أن نتبع ملة اليهود أو ملة النصارى ، الحق جل جلاله يقول : ﴿ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ .. ﴿٧٣﴾﴾ (آل عمران)

فاليهود حرَّفوا فى ملَّتهم ، والنصارى حرفوا فيها ، ورسول الله ﷺ معه هدى الله ، والهدى هو ما يوصلك إلى الغاية من أقصر طريق ، أو هو الطريق المستقيم باعتباره أقصر الطرق إلى الغاية ، وهدى الله طريق واحد ، أما هدى البشر فكل واحد له هدى ينبع من هواه .

ومن هنا فإنها طرق متشعبة ومتعددة توصلك إلى الضلال ، ولكن الهدى الذى يوصل للحق هو هدى واحد ، هدى الله عز وجل.

وقوله تعالى : ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم ... ﴿١٢٠﴾ ﴾ (البقرة) إشارة من الله سبحانه وتعالى إلى أن ملة اليهود وملة النصارى أهواء بشرية ، والأهواء جمع هوى ، والهوى هو ما تريده النفس باطلاً بعيداً عن الحق ؛ لذلك يقول الله جل جلاله : ﴿... وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ﴾ (البقرة)

فالله تبارك وتعالى يقول لرسوله : لو اتبعت الطريق المعوج الملىء

بالشهوات بغير حق ، سواء كان طريق اليهود أو طريق النصارى بعد ما جاءك من الله من الهدى، فليس لك من الله من ولى يتولى أمرك ويحفظك ، ولا نصير ينصرك.

وهذا الخطاب لرسول الله ﷺ يجب أن نقف معه وقفة لنتأمل كيف يخاطب الله رسوله ﷺ الذى اصطفاه ، فالله حين يوجه هذا الخطاب لمحمد ﷺ ، فالمراد به أمة رسول الله ﷺ أتباع رسول الله الذين سيأتون من بعده ، وهم الذين يمكن أن تميل قلوبهم إلى اليهود والنصارىٰ ، أما الرسول ﷺ فقد عصمه الله من أن يتبعهم.

والله سبحانه وتعالى يريدنا أن نعلم يقينًا أن ما لم يقبله من رسول الله عليه الصلاة والسلام لا يمكن أن يقبله من أحد من أمته مهما علا شأنه ، وذلك حتى لا يأتى بعد رسول الله من يدعى العلم ، ويقول : نتبع ملة اليهود أو النصارى لنجذبهم إلينا ، نقول له: لا ما لم يقبله الله من حبيبه ورسوله لا يقبله من أحد.

إن ضَرْبَ المثل هنا برسول الله ﷺ مقصود به أن اتباع ملة اليهود أو النصارى مرفوض تمامًا تحت أى ظرف من الظروف ، لقد ضرب الله سبحانه المثل برسوله حتى يقطع على المغرضين أىَّ طريق للعبث بهذا الدين بحجة التقارب مع اليهود والنصارى.

ويسأل الحق سبحانه الذين آمنوا سؤالاً ، فيقول :

﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٠١) ﴾ (آل عمران)

إنه استعظام وتعجيب من أن يأتى الكفر مرة أخرى من المؤمنين ، وهم فى نعيم المعرفة بالله ، فآيات الله تتلى عليهم ، ورسول الله حق ومعهم وفيهم.

وفى القـرآن آية أخرى يقـول فـيهـا الحق سـبحـانه :﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾** ﴾ (آل عمران)

فمـا دُمْتم مـؤمنين وهـم كفـار ، فكيف يتأتى منكـم أن تطيعوا الكـافرين ؟ إنكم وهم من أول مرحلة مختلفون ، أنتم مؤمنون وهم كفار ، والكافر والمنافق سيستـغل فرصة الضعف فى النفس الإيمانية المسلمة ويحـاول أن يتسلل إليها ، مثلمـا قلنا : إن جماعـة من المنافقين قـالوا : قُتِل محـمد ، ولم يعد فـينا رسول فلنلجـأ إلى دين آبائنا ، والمؤمنون الذين أصـابتهـم لحظة ضعف قـالوا : نذهب إلى ابن أُبـيٍّ ـ المنافق الأول فى المدينـة ـ ونطلب مـنه أن يتـوسط لنا عـند أبى سفيان ليأخذ لنا الأمان.

ولذلك يقول الحق : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾** ﴾ (آل عمـران) ، فإن كان الموقف يحـتاج إلى ناصر ، فلا تطلبوا النصير من الكافرين ، ولكن اطلبوا ممن آمنتم به.

لذلك قال تعالى: ﴿ **بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾** ﴾ (آل عمران) ، فـالنصر الحـقـيقى هـو النصر الذى يأتـى من الله ، فاطمـئن على أنك خـالص ومخلص لله ، وإلا ما جاءك نصره ، فساعة يأتيك نصر الله فاطمئن على نفسك الإيمانية ، وأنك مع الله.

ويبرز لنا الحق سبحانه نتيجة إطاعة هؤلاء ، فيقول تعالى :

﴿ **وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾** ﴾ (الأنعام)

فإذا اتـبعتَ الناس فـسوف يضلونك ؛ لأنهم لا يملكون دلـيلاً علمـيًا ، ولا حقًا يقينيًا ، بل يتبعون الظن إن كـان الأمر راجحًا ، ويخرصون ويُخمِّنون حتى ولو كان الأمر مرجوحًا.

١٣ تقوى الله حق تقاته

كلما اقترب الإنسان بتقواه من الله ، تيقظ شوقه إلي مقام أرفع مما بلغ ، وإلي مرتبة وراء ما ارتقي ، وتطلع إلي المقام الذي يستيقظ فيه قلبه فلا ينام.

الله عز وجل يريد من الإنسان التقوي التي تبلغ أن تُوفِي بحق الله الجليل ، التقوي الدائمة اليقظة التي لا تغفل ولا تفتر لحظة من لحظات العمر حتي يبلغ الكتاب أجله.

يقول الحق سبحانه :﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢)**﴾ (آل عمران)

عندما يسمع الإنسان قول الحق سبحانه : ﴿**اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ .. (١٠٢)**﴾ (آل عمران) ماذا تعنى حق تقاته؟ إن كلمة حق كما نعرف تعنى الشىء الثابت الذى لا يزول ولا يتزحزح ، أى : لا ينتهى ولا يتذبذب ، هذا هو الحق.

إذن : ما حق التقى ؟ هو أن يكون إيمانك أيها المؤمن إيمانًا راسخًا لا يغادرك ولا تتذبذب معه ، واتقاء الله حق تقاته هو اتباع منهجه ، فيطاع الله باتباع المنهج فلا يعصى ، ويُذكر فلا ينسى ، ويُشكر ولا يُكفر.

وطريق الطاعة يوجد فى اتباع المنهج بـ «افعل» و «لا تفعل» ، ويُذكر ولا يُنسى ، لأن العبد قد يطيع الله ، وينفذ منهج الله ، ولكن النعم التى خلقها الله قد تشغل العبد عن الله ، والمنهج يدعوك أن تتذكر فى كل نعمة مَنْ أنعم بها ،

وإياك أن تُنسيك النعمة المنعم.

ويشكر العبد الله ، ولا يكفر بالنعم التى وهبها له الله ، وما دمت أيها العبد تستقبل كل نعمة وتردها إلى الله وتقول : « ما شاء الله ، لا قوة إلا بالله» ولا تكفر بالنعم أى : أنك تؤدى حق النعمة ، وكل نعمة يؤدى العبد حقها تعنى أنها نعمة شكر العبد ربه عليها ، ولم يكفر بها.

وقيل فى معنى ﴿حَقَّ تُقَاتِهِ .. ﴿١٠٢﴾﴾ (آل عمران) أى : أنه لا تأخذك فى الله لومة لائم ، أو : أن تقول الحق ولو على نفسك ، هذا ما يقال عنه «حق التقى» ، أى : التُّقى الحق الذى يُعتبر تُقَى بحق وصدق.

وقال العلماء : إن هذه الآية عندما نزلت وسمعها الصحابة استضعف الصحابة نفوسهم أمام مطلوبها ، فقال بعضهم : من يقدر على حق التُّقى؟ ويقال : إن الله أنزل بعد ذلك : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ .. ﴿١٦﴾﴾ (التغابن)

فهل معنى هذا أن الله كلف الناس أولاً ما لا يستطيعون ؟ ثم قال من بعد ذلك : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ .. ﴿١٦﴾﴾ (التغابن) ؟ لا ، إن الحق سبحانه لا يكلف إلا بما فى الوُسْع .

والناس قد تخطئ الفهم لقوله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ .. ﴿١٦﴾﴾ (التغابن) فيقول العبد : أنا غير مستطيع أن أقوم بذلك التكليف ، ويظن هذا العبد أن التكليف يسقط عنه ، لا إن هذا فَهْم خاطئ .

إن قوله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ .. ﴿١٦﴾﴾ (التغابن) أى : أنك تتقى الله بما كان فى استطاعتك من الوسع ، فما باستطاعتك أن تقوم به ، عليك أن تقوم به ، فلا يهرب أحد إلى المعنى المناقض ، ويقول : أنا غير مستطيع ؛ لأن الله يعلم حدود استطاعتك.

وساعة تكون غير مستطيع فهو سبحانه الذى يخفف ، إنك لا تخفف أنت

على نفسك أيها العبد ، فالخالق الحق هو الذى يعلم إذا كان الأمر خارجًا عن استطاعتك أو لا ، وساعة يكون الأمر خارجًا عن استطاعتك ، فالله هو الذى يخفف عنك .

لذلك ، فعلى الإنسان ألاَّ يستخدم القول الحق : ﴿**لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا .. ﴿٢٨٦﴾**﴾ (البقرة) فى غير موضعه ؛ لأن الإنسان لا يستطيع أن يقدر الوُسْع ، ثم يبنى التكليف على الوسع ، بل عليك أن تفهم أيها الإنسان أن الله هو الذى خلق النفس ، وهو الذى أنزل التكليف لوسع النفس ، وما دام الخالق للنفس هو الله فهو العليم بوسع النفس حينما قرر لها المنهج.

إنه سبحانه الذى كلَّف ، وهو العليم بأن النفس قد وسعت ، ولذلك فهو لا يكلف نفسًا إلا وُسْعها ، فإن كان سبحانه قد كلف فاعلم أيها العبد أنه سبحانه قد كلف بما فى وسعك ، وعندما يحدث للإنسان ما يشق عليه أو يمنعه من أداء ما كلف به تمامًا ، فهو سبحانه يضع لنا التخفيف وينزل لنا الرخص ، مثال ذلك : المريض أو الذى على سفر ، له رخصة الإفطار فى رمضان ، والمسافر له أن يقصر الصلاة.

إذن : فالله سبحانه هو الذى علم حدود وُسْع النفس التى خلقها ، ولذلك لا تُقدِّر وسعك أولاً ثم تقدر التكليف عليه ، ولكن قدِّر التكليف أولاً . وقُلْ : ما دام الحق قد كلَّف فذلك فى الوُسْع.

والحق سبحانه يخاطب رسول الله ﷺ فيقول : ﴿**فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ .. ﴿١١٢﴾**﴾ (هود) والاستقامة معناها عدم الميل أو الانحراف ـ ولو قيد شعرة ـ وهذا أمر يصعب تحقيقه ، لأن الفاصل بين الضدين أو بين المتقابلين هو أدق من الشعرة فى بعض الأحيان .

ومثال ذلك : حين ترى الظل والضوء ، فأحيانًا يصعد الظل على الضوء ، وأحيانًا يصعد الضوء على الظل ، وسنجد صعوبة فى تحديد الفاصل بين الظل والنور ، مهما دقَّتْ المقاييس ، وهكذا يصبح فصل الشىء عن نقيضه صعبًا ، ولذلك فالاستقامة أمر شاق للغاية.

وساعة أن نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ :« شَيَّبتنى هود وأخواتها»(١) .

ولولا أن الحق سبحانه قال فى كتابه الكريم :﴿ **فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ .. ﴿١٦﴾** (التغابن) ، فلولا نزول هذه الآية لتعب المسلمون تمامًا ، وقد أنزل الحق سبحانه هذا القول بعد أن قال : ﴿**اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ..﴿١٠٢﴾** (آل عمران).

وعزَّ ذلك على صحابة رسول الله ﷺ ، فأنزل الحق سبحانه ما يخفف به عن أمة محمد ﷺ بأن قال سبحانه : ﴿ **فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ .. ﴿١٦﴾** (التغابن).

إذن : فالأمر بالاستقامة هو أمر بدقة الأداء المطلوب لله أمرًا ونهيًا ، بحيث لا نميل إلى جهة دون جهة ، وهكذا تطلب الاستقامة كامل اليقظة وعدم الغفلة.

وهاتان الآيتان مما يدخل فى قوله تعالى : ﴿ **مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾** ﴾ (البقرة)

---

(١) عن أبى جحيفة قال : قالوا : يا رسول الله ، نراك وقد شِبْتَ ؟ قال : « شيبتنى هود وأخواتها» أخرجه أبو نعيم فى الحلية (٤ / ٣٥٠) وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٧ / ٣٧) من حديث عقبة بن عامر ، وعزاه للطبرانى وقال : رجاله رجال الصحيح ، وأخوات سورة هود التى شيبت رسول الله ﷺ هى : سورة الواقعة والمرسلات والنبأ والتكوير . انظر الترمذى فى سننه (٣٢٩٧).

فقوله تعالى :﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ .. ﴿١٠٢﴾** ﴾ (آل عمران) وهذه منزلة عالية فى التقوى ، لا يقوم بها إلا الخواص من عباد الله ، شقَّتْ هذه الآية على الصحابة ، وقالوا : ومن يستطيع ذلك يا رسول الله ؟ فنزلت : ﴿**فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ .. ﴿١٦﴾** ﴾ (التغابن). وجعل الله تعالى التقوى على قدر الاستطاعة.

وهكذا نسخت الآية الأولى مطلوبًا ، ولكنها بقيت ارتقاء ، فمن أراد أن يرتقى بتقواه إلى (حَقّ تُقاتِه) فَبِها ونعمت ، وأكثر الله من أمثاله وجزاه خيراً ، ومَنْ لم يستطع أخذ بالثانية .

ولو نظرنا إلى هاتين الآيتين نظرة أخرى لوجدنا الأولى : ﴿**اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ..﴿١٠٢﴾** ﴾ (آل عمران) ، وإن كانت تدعو إلى كثير من التقوى إلا أن العاملين بها قلة ، فى حين أن الثانية :﴿**فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ .. ﴿١٦﴾** ﴾ (التغابن) ، وإنْ جعلتْ التقوى على قدر الاستطاعة إلا أن العاملين بها كثير ، ومن هنا كانت الثانية خيراً من الأولى ، كما نقول : قليل دائم خير من كثير منقطع.

أما فى قوله تعالى :﴿**أَوْ مِثْلِهَا .. ﴿١٠٦﴾** ﴾ (البقرة) أى : أن الأولى مثل الثانية ، فما وَجْه التغيير هنا ؟وما سبب التبديل ؟

نقول : سببه هنا اختبار المكلَّف فى مدى طاعته وانصياعه ، إنْ نُقِل من أمر إلى مثله ، حيث لا مشقة فى هذا ، ولا تيسير فى ذلك ، هل سيمتثل ويطيع ، أم سيجادل ويناقش ؟

مثل هذه القضية واضحة فى حادث تحويل القبلة ، حيث لا مشقة على الناس فى الاتجاه نحو بيت المقدس ، ولا تيسير عليهم فى الاتجاه نحو الكعبة ،

الأمر اختبار للطاعة والانصياع لأمر الله ، فكان من الناس منْ قال : سمعًا وطاعة . ونفَّذوا أمر الله فورًا دون جدال ، وكان منهم من اعترض وأنكر واتهم رسول الله ﷺ بالكذب على الله .

ومن ذلك أيضًا ما نراه فى مناسك الحج مما سنَّه لنا رسول الله ﷺ حيث نُقبِّل الحجر الأسعد وهو حجر ، ونرمى الجمرات وهى أيضًا حجر ، إذن : هذه أمور لا مجال للعقل فيها ، بل هى لاختبار الطاعة والانقياد للمشرع سبحانه وتعالى .

وتقوى الله تعنى أن نفعل أوامر الله وأن نتجنب نواهيه ، لنحكم حركة اختياراتنا بمنهج ربنا ، فإن حكمنا حركة اختياراتنا بمنهج الله صرنا مع الكون كأننا مسخرون لقضايا المصلحة والخير ، فمعنى التقوى هو أن نتقى معضلات الحياة ومشكلاتها ، بأن نلتزم منهج الله ، وساعة ترى منهج الله وتطبقه تكون قد اتقيت المشكلات.

أما من يُعرِض عن تقوى الله سبحانه ، فإن الحق يقول عن مصيره :﴿ **وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤)**﴾ (طه)

أى : أن حياته تمتلئ بالهموم والمشاكل ، لأنه يخالف منهج الله ، فالذى يجعل الحياة مليئة بالمشاكل هو أننا نأخذ بالقوانين التى نسنُّها لأنفسنا ونعمل بها ، ولكن إذا أخذنا تقنين الله لنا فمعنى ذلك أننا نتقى المشاكل.

وإذا لم تنشأ المشاكل مع المخالفات لقال الناس : خالفنا منهج الله وفلحنا ، لذلك كان لابد أن توجد المشاكل لتنبهنا أن منهج الله يجب أن يسيطر.

وحين يتمسك الناس بمنهج الله فلن تأتى لهم المشاكل بإذن الله ، فالذى يتعب العالم هو الحركة المتعاندة ، والحق سبحانه وتعالى أنزل لنا المنهج القويم

ليجعل حركة حياتنا متساندة ، فإن اتبعنا المنهج صرنا نأخذ الأوامر من إله واحد ، وصار كل منا مكلفًا بالتعاون مع غيره.

وهذا لن يحدث إلا إذا استجبنا لما يدعو الله إليه تشريعًا والرسول بلاغًا ، وبهذا تتساند الحياة ، وتصبح حياة لها طعم ، وينطبق عليها قول الحق تبارك وتعالى : ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾**﴾ (النحل)

أى : يعيشون حياة طيبة لا حقد فيها ، ولا استغلال ولا ضغن ولا حسد ، ولا سيطرة ، ولا جبروت ، فيصبح الناس جميعًا فى أمان ، فالحياة الطيبة فى الدنيا وعدم الضلال والشقاء متحققان لمن اتبع منهج الله تعالى .

فلا يَقُلْ أحد : إن الدين ثمرته فى الآخرة ، بل قولوا : ليست مهمة الدين هى الآخرة فحسب ، بل مهمة الدين هى الدنيا أيضًا ، والآخرة إنما هى ثواب على النجاح فى هذه المهمة ، لأن الله إنما يجازى فى الآخرة مَنْ أحسن العمل فى الدنيا .

وعلى هذا ، فالعقاب على عدم اتباع المنهج الإلهى لا يتأخر إلى يوم القيامة ، ولكن الحياة فى الدنيا تكون مرهقة ، والمعيشة ضنكًا .

إذن : إياكم أن تفهموا أن المنهج الدينى لله غايته الآخرة فقط ، لا بل اتباع المنهج الدينى لله جزاؤه فى الآخرة ، وأما ثمرته ففى الدنيا ، فمن يوفق فى هذه الدنيا وحركته متساندة مع غيره ، يعطى له الله الجزاء فى الحياة المستريحة فى الدنيا بالإضافة إلى جزاء الآخرة ، وهكذا نفهم أن موضوع الدين هو الدنيا ، أما الآخرة فهى جزاء على هذا الاختبار الدنيوى .

وفى تذييل الآية الكريمة بقوله : ﴿ **وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾** ﴾ (آل

عمران) نجد أنفسنا أمام نهى عن فعل ، وهو : عدم الموت إلا والإنسان مسلم.

كيف ذلك ؟ أيقول لك أحد : لا تَمُتْ ؟ إن ذلك الأمر ليس لك فيه اختيار؛ لأنه أمر نازل عليك . فإذا قيل لك: لا تمت فإنك تتعجب ، لأن أحداً لا يملك ذلك ، ولكن إذا قيل لك : لا تمت إلا وأنت مسلم ، فأنت تفكر ، وتصل بالتفكير إلى أن الفعل المنهى عنه : لا تمت . ليس فى قدرة الإنسان ولكن الحال الذى يقع عليه الفعل وهو : إلا وأنت مسلم ، فى قدرة الإنسان.

لذلك تقول لنفسك : إن الموت يأتى بغير عمل منى ، أما كلمة : إلا وأنت مسلم ، فهى باستطاعتى ، لأن الإسلام يكون باختيارى ، صحيح أنك لا تعرف متى يقع عليك الموت ؟ ولذلك تحتاط ، والاحتياط يكون بأن تظل مسلماً حتى يصادفك الموت فى أى لحظة وأنت مسلم .

فلنحرص على أن نكون مسلمين ، ويظل كل منا متمسكًا بأهداب الإسلام فإن صادف الموت فى أى لحظة يكون مسلماً ، وكأن الحق سبحانه يقول لنا : تمسكوا بإسلامكم ؛ لأنكم لا تدرون متى يقع عليكم الموت . فالإنسان يترقب الموت فى أى لحظة .

١٤

بطانة الشر

يحذرنا الحق تعالي من أن نتخذ من أعدائنا الطبيعيين بطانة ، وأن نجعل منهم أمناء علي أسرارها ومصالحها ، وهم للذين آمنوا عدو ، يجىء هذا التحذير في صورة شاملة خالدة ، ما نزال نري مصداقها في كل وقت ، وفي كل أرض ، صورة رسمها هذا القرآن الحي ، فغفل عنها أهل هذا القرآن ، فأصابهم من غفلتهم وما يزال يصيبهم الشر والأذي والمهانة.

يقول الحق سبحانه :﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ (آل عمران)

يأمر الحق سبحانه عباده المؤمنين الذين آمنوا به تعالى ، وأصبحوا بموجب هذا الإيمان ملزمين بتكاليف هذا الإيمان ومقتضياته ، فما دمتم قد آمنتم فعليكم الحفاظ على هذا الإيمان بأن تبعدوا عنه نزغ الشيطان وكيد الأعداء ، فنزغ الشيطان وكيده إنما يأتى من البطانة التى تتداخل مع الإنسان .

وبطانة الرجل هم خاصته ، أى : الذين يجلسون معه ويصاحبهم ويعرفون أسراره ، وكلمة «بطانة» مأخوذة من بطانة الثوب ، فنحن عندما نمسك أى قطعة من ثياب نرى أن الثوب خشن ، ولذلك فالصانع يضع للثوب الخشن

بطانة ناعمة ويختارها كذلك ؛ لأنها متصلة بالجسم ، والبطانة من الأصدقاء تدخل على الناس بالنعومة وتستميلهم وتستعبدهم .

ولذلك نجد النبى ﷺ يقول: « الأنصار شعار ، والناس دثار»(١) والشعار هو الثوب الذى يلامس شعر الجسد ، والنبى ﷺ يعلى من قيمة الذين استقبلوا الدعوة الإسلامية بمودة وحُبٍ ، وهكذا نعرف أن كلمة «بطانة» مأخوذة ـ كما قلنا ـ من بطانة الثوب ؛ لأنها التى تلتحم بالجسم حتى تحميه ، فنحن نرتدى الصوف ليعطينا الدفء ، ونضع بينه وبين الجسم بطانة لنبعد عن الجسم خشونة الصوف ، ويسمون البطانة بالوليجة ، أى : التى تدخل فى حياة الناس ، وكل شر فى الوجود من هذه البطانة .

ولننتبه إلى دقة الرسول فى التعامل مع البطانة من البشر ، فها هو ذا رسول الله ﷺ لا يوطن الأماكن وينهى عن إيطانها ، ويوطن المكان أى يخصص مكانًا لفلان ليجلس فيه ، لقد كان رسول الله ﷺ يجلس حيث انتهى به المجلس ، وكذلك كان صحابته ، فلا أحد يجلس دائمًا بجانبه حتى لا يأخذ أحد من مكانته عند الرسول فرصة يتخيل معها الآخرون أنه صاحب حظوة ، فكلهم سواسية .

ونحن نرى فى عصرنا أن هناك من يتخذ لنفسه مكانًا فى المسجد ، وهذا منهى عنه ، فعن ابن عمرو رضي الله عنه قال: «نهى رسول الله ﷺ عن نقرة الغراب ، وافتراش السبع ، وأن يوطِّن الرجل المكان فى المسجد كما يوطن البعير»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٠٦١) ، وأحمد بن حنبل فى مسنده (٤/ ٤٢) من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم المازنى.

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ٤٢٨) ، وابن ماجه فى سننه (١٤٢٩)، وأبو داود فى سننه (٨٦٢) من حديث عبد الرحمن بن شبل قال : «نهى رسول الله ﷺ عن نقرة الغراب ، وافتراش السبع ، وأن يوطن الرجل المكان فى المسجد كما يوطن البعير».

ويضيف على ـ كرم الله وجهه ـ فى وصف مجلس رسول الله ﷺ : كان ﷺ إذا ذهب إلى قوم جلس حيث ينتهى به المجلس « وكان يجلس على الأرض ، ويأكل على الأرض ، ويعتقل الشاة ، ويجيب دعوة المملوك »(١).

أهناك أدب أكثر من هذا ؟ إنه الرسول الكريم ، يجلس حيث ينتهى به المجلس ، لقد أراد أن يضرب لنا المثل حتى تتنوع اللقاءات ، فاليوم قد يجلس مؤمن بجانب مؤمن من مكان بعيد ، وغداً يجلس كلاهما بجانب اثنين جاء كل منهما من مكان آخر ، وهكذا تتحقق اندماجية الإيمان بتنوع اللقاءات .

ويقول على ـ كرم الله وجهه ـ : كان رسول الله يعطى كل جلسائه نصيبهم من مجلسه ، حتى لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه.

إن الرسول ﷺ عندما يعطى نظرة لواحد ، فهو ينظر كذلك لكل واحد من مجلسه ، وإن تكلم كلمة إلى ناحية فهو يعطى كلمة أخرى إلى الناحية المقابلة ، وذلك حتى يعرف كل جليس للرسول أن المؤمنين سواسية ، وأنه ﷺ رسول إلى الناس كافة ، وليس رسولاً إلى قوم بعينهم ، وحتى يعرف كل واحد من جلسائه أنه يجلس إلى رسوله الذى بعثه الله إليه .

هكذا كان سلوك رسول الله ﷺ حتى يعطى القدوة للناس ، وحتى يعرف كل إنسان أن التحام الناس بعضهم ببعض ، قد يسبب لواحد استغلال الالتحام فى غير صالح الإيمان.

لذلك يقول الحق سبحانه : تنبهوا يا من آمنتم إلى أنكم فى معسكر من غير المؤمنين يقاتلكم ويعاند إيمانكم ، وهؤلاء لا يمكن أن يتركوكم على إيمانكم ،

---

(١) أخرجه الطبرانى من حديث ابن عباس ، قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٩/ ٢٠) : « إسناده حسن» ، وفيه :« ويجيب دعوة المملوك على خبز الشعير».

بل لابد أن يكيدوا لكم ، وهذا الكيد يتجلى فى أنهم يدسون لكم أشياء ، وينفذون إليكم.

ونعرف جميعًا أن الإسلام عندما جاء كان كثير ممن آمن له ارتباطات بمن لم يسلم ، فهناك القرابة ، والصداقة ، والإلف القديم والجوار ، والأخوة من الرضاعة ، لذلك يحذر الحق من هذه المسائل ، فلا يقولن مؤمن : هذا قريبى ، أو هذا صديقى ، أو هذا حليفى ، أو هذا أخى من الرضاعة.

فالإسلام يحقق لكم أخوة إيمانية تفوق كل ذلك ، ولهذا ، فإياكم أن تتخذوا أناسًا يتداخلون معكم بالود ؛ لأن الشر يأتى من هذا المجال ، وإياكم أن تعتقدوا أن فجوة الإيمان والكفر بينكم ستذهب أو تضيق ؛ لأن الكفار لن يتورعوا أن يدخلوا عليكم من باب الكيد لكم ولدينكم بكل لون من الألوان ، وهم ـ الكفار ـ ولا يقصرون فى هذا أبداً .

لذلك يأتى الأمر من الحق سبحانه : احموا هذا الإيمان ، فلا تتداخلوا مع غير المؤمنين تداخلاً يفسد عليكم أمور دينكم ، لأنهم لن يهدأوا ، لماذا ؟ لأن حال هذه البطانة معكم سيكون كما يلى : ﴿**لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً (١١٨)**﴾ (آل عمران) أى : لا يقصرون أبداً فى الكيد لكم.

والخبال هو الفساد للهيئة المدبرة للجسم وهو العقل ، ونحن نسمى اختلال العقل «خبلاً».

إن الحق سبحانه يقول : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨)**﴾ (آل عمران)

فالمنهى عنه ليس أن تتخذ بطانة من المؤمنين ، ولكن المنهى عنه هو أن تتخذ

بطانة من غير المؤمنين ، لأن المؤمن له إيمان يحرسه ، أما الكافر فليس له ما يحرسه ، والبطانة من غير المؤمنين لا تقصر فى لحظة واحدة فى أنها تريد للمؤمنين الخبال والفساد ، ولا يقف الأمر عند هذا الحد ، بل إنهم يحبون العنت والمشقة للمؤمنين ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ (١١٨)﴾ (آل عمران).

والحق سبحانه وتعالى لا يريد لنا العنت ، وفى هذا يقول سبحانه : ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٠)﴾ (البقرة)

أى : أنه سبحانه لو أراد لكلَّفكم بأمور كثيرة تحمل المشقة ، لكن الحق سبحانه يسَّر لكم أيها المؤمنون ، لكن أهل الكفر لا يودون إلا الخبال للمؤمنين ويحبون المشقة لهم .

ومن أين تنشأ المشقة ؟ إنك حين تكون مؤمنًا فأنت تقوم بما فرضه عليك الدين ، وهم يحاولون أن ينفخوا فى المؤمن بغير ما يقتضيه هذا الدين ، فتتوزع نفس المؤمن ، وبهذا النفخ تنقسم ملكات المؤمن على نفسها ، وعندما تنقسم الملكات على نفسها فإن القلق والاضطراب يسيطران على الإنسان ، فالقلق والاضطراب ينشآن عندما لا تعيش الملكات النفسية فى سلام وانسجام.

ونحن نرى ذلك فى المجتمعات التى وصلت إلى أرقى حياة اقتصادية وأمورهم المادية مُيسَّرة كلها ، فالشيخوخة مؤمَّنة ، وكذلك التأمينات الصحية والاجتماعية ، ودَخْل الإنسان مرتفع ، لكنهم مع ذلك يعيشون فى تعب ، وترتفع بينهم نسبة الانتحار ، وينتشر بينهم الشذوذ.

والسبب وراء كل ذلك هو أن ملكاتهم النفسية غير منسجمة ، وسلام الملكات النفسية لا يتحقق إلا عندما يؤمن الإنسان ، ويطبق تعاليم ما يؤمن به ، فالرجل ـ على سبيل المثال ـ حين ينظر إلى حلاله ، أى : زوجته ، ينظر إليها

براحة ويشعر باطمئنان ، لأن ملكاته النفسية منسجمة ، أما عندما تتجه عيناه إلى امرأة ليست زوجته ، فإنه يراقب كل من حوله حتى يعرف : هل هناك من يراه أو لا ؟ وهل ضبطه أحد أو لا ؟ وعندما يضبطه أحد فهو يفزع وتتخبط ملكاته.

لذلك يحذر الحق سبحانه المؤمنين : إياكم من البطانة من غير المؤمنين ، لأنهم لا يقصرون أبداً ، ولا يتركون جهداً من الجهود إلا وهم يحاولون فيه أن يُدخِلوكم فى مشقة ، والمشقة إنما تنشأ من أن الكافر يحاول أن يجذب المؤمن إلى الانحراف ، والاضطراب النفسى وتشتت الملكات مستغلاً القرابة والصداقة ، مطالبًا أن يرضيه المؤمن بما يخالف الدين ، ولا يستطيع المؤمن التوفيق بين ما يطلبه الدين وما يطلبه الكافر.

لذلك تنقسم ملكات المؤمن ويحس بالمشقة ، والكافرون لا يتركون أى فرصة تأتى بالفساد للمؤمنين إلا انتهزوها واغتنموها.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨)﴾ (آل عمران)

وما دامت البغضاء قد بدت من أفواههم ، فكيف نتخذهم بطانة ؟ إنك حين تصنع لنفسك بطانة من غير المؤمنين ، فإنها تضم بعضًا من المنافقين غير المنسجمين مع أنفسهم ، والمنافق له لسان يُظْهِر خلاف ما يبطن ، وعندما يذهب المنافق إلى غير المؤمنين فإن لسان المنافق ينقل بالسخرية كلام المؤمن.

هكذا تظهر البغضاء من أفواه المنافقين المذبذبين بين ذلك ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، إنهم لا ينتمون إلى الإيمان ولا ينتمون إلى الكفر ، والذى

يصل المؤمنين من بغضاء هؤلاء قليل ، لأن ما تخفى صدورهم أكبر.

وحين تبدو البغضاء من أفواههم ، فإما أن يقولوها أمام منافقين ، وإما أن يقولها بعضهم لبعض ، فيتبادلوا الاستهزاء والسخرية بالمؤمن ، والله أعلم بمن قيل فيه هذا الكلام ، ولذلك فعندما يتحدث الكافرون بكلام فيما بينهم ، فالله يكشفهم ويفضحهم لنا نحن المؤمنين.

إن الله تعالى يكشف بطلاقة علمه كل الخبايا ، وكان على الكافرين والمنافقين أن يعلموا أن هناك إلهًا يرقب عملية الإيمان فى المؤمن حتى ينبهه إلى أدقِّ الأشياء ، لكنهم كأهل كفر ونفاق فى غباء.

لقد كان مجرد نزول قول الحق : ﴿ **قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ** (١١٨) ﴾ (آل عمران) كان ذلك فرصة أمامهم ليدفعوا عن أنفسهم لو كانت صدورهم خالية من الحقد ، لكنهم عرفوا أن الله قد علم ما فى صدورهم ، إن الغيظ الذى فى قلوب هؤلاء الجاحدين الحاقدين قد نضح على ألسنتهم ، ولكن من الذى نقل إلى رسول الله ﷺ وصحابته ما فى صدور الكافرين مما هو أكثر من ذلك ؟

إنه الله ـ جَلَّتْ قدرته ـ قد فضحهم بما أنزل من قوله تعالى : ﴿ **وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ** (١١٨) ﴾ (آل عمران) إذن : لم يعد لمن آمن بالله حجة ، لأن الله أعطاه المناعات القوية لصيانة ذلك الإيمان ، وأوضح الحق للمؤمنين أن أعداءهم لن يدخروا وسعًا أبدًا فى إفساد انتمائهم لهذا الدين ، فيجب أن ينتبه المؤمنون.

وإذا ما دققنا التأمل فى تذليل الآية نجد أن الحق قال : ﴿ **قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ** (١١٨) ﴾ (آل عمران) إذن : فالآيات المنزلة من الله تعالى توضح

ذلك ، وقد قلنا من قبل : إن الآيات إما أن تكون آيات قرآنية ، وإما أن تكون آيات كونية ، فالقرآن له آيات ، والكون له آيات.

والآية هى الشىء العجيب اللافت الذى يجب أن ننتبه إليه لنأخذ منه دستوراً لحياتنا ، وعلى ذلك ، فالآيات القرآنية تعطى المنهج ، والآيات الكونية تؤيد صدق الآيات المنهجية ، ويجب أن تتفطنوا أيها المؤمنون إلى هذه الآيات.

والذى يدل على أن المؤمنين قد عقلوا وتفطنوا ، أن الآية الأولى بيّنت أنهم قد نُهُوا عن أن يتخذوا بطانة من دونهم ـ أى : من غير المؤمنين ـ وها هى ذى الآية التالية تقول :

﴿ هَا أَنتُمْ أُوْلاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩) ﴾ (آل عمران)

فما زال الحديث والكلام عن البطانة ، وهو يدل على أن البطانة لم تستطع أن تلوى المؤمنين عن الإيمان ، بل إن المؤمنين الذين ذاقوا حلاوة الإيمان حاولوا أن يغيروا من الكافرين ، ولم يفلح الكافرون أن يغيروا من المؤمنين ، وكذلك لم يفلح الكافرون أيضًا أن يسيطروا على أنفسهم ، ولم يكن أمام هؤلاء الكافرين إلا النفاق ، لذلك قالوا : آمنا.

إن الآية تدلنا على أن المؤمنين قد عقلوا آيات الحق ، ولماذا إذن جاء الحق سبحانه وتعالى بقوله : ﴿تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ (١١٩) ﴾ (آل عمران)

لقد أحب المؤمنون الكافرين حين شرحوا لهم قضية الحق فى منهج الإسلام ، وأراد المؤمنون أن يُجنِّبوا الكافرين متاعب الكفر فى الدنيا والآخرة ،

وهذا هو الحب الحقيقى ، فهل بادلهم الكافرون الحب ؟ لا ، لأن هؤلاء الكافرين أرادوا أخْذ المؤمنين إلى الكفر ، وهذا دليل عدم المودة.

ولم يستطع الكافرون تحقيق هذا المأرب ، ولذلك قالوا : آمنا . ومعنى قولهم آمنا ، يدلنا على أن موقف المسلمين كان موقفًا صلبًا قويًا ، لذلك لم يجد الكافرون بُدًّا من نفاقهم.

﴿ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا (١١٩) ﴾ (آل عمران) قالوا ذلك على الرغم من ظهور البغضاء فى أفواههم ، ولم يكن سلوكهم مطابقًا لما يقولون.

وهنا بدأ المسلمون فى تحجيم وتقليل مودتهم للكافرين ، ولذلك قال أهل الكفر : لو استمر الأمر هكذا فسوف يتركنا هؤلاء المسلمون وحتى يتجنبوا هذا الموقف ادعوا الإيمان فى الظاهر ، وينقلب موقفهم إذا خلوا لأنفسهم.

ويصور الحق هذا الموقف فى قوله : ﴿وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ (١١٩)﴾ (آل عمران) ، فما هو العَضُّ ؟ إن العضَّ لغويًا هو التقاء الفكَّين على شىء ليقضماه ، وما الأنامل ؟ إنها أطراف الأصابع ، والأنامل فيها شىء من الدقة ، وشىء من خفة الحركة المأخوذة من خلية النحل ، ويسمون الأنامل أيضًا البنان.

وعملية عضِّ الأنامل عندما نراها نجدها عملية انفعالية قسرية ، أى : أن الفكر لا يرتبها ، فليس هناك من يرضى أن يظل مرتكبًا لعملية عضِّ أصابعه ، فعضّ الأصابع يسبب الألم ، لكن الامتلاء بالغيظ يدفع الإنسان إلى عض الأصابع كمسألة قسرية نتيجة اضطراب وخلل فى الانفعال.

ومن أين يجىء الغيظ ؟ لقد جاء الغيظ إلى الكافرين لأنهم لم يستطيعوا أن يزحزحوا المؤمنين قيد شعرة عن منهج الله ، بل حدث ما هو العكس ، لقد

حاول المؤمنون أن يجذبوا الكافرين إلى نور الإيمان ، وكان الكافرون يريدون أن يصنعوا من أنفسهم بطانة يدخلون منها إلى المؤمنين لينشروا مفاسدهم ، ولذلك وقعوا فى الغيظ عندما لم يُمكِّنهم المؤمنون من شىء من مرادهم.

إن الإنسان يقع أحيانًا فريسة للغيظ حين لا يتمكن من إعلان غضبه على خصمه ، ولهذا إذا أراد إنسان من أهل الإيمان أن يواجه حسد واحد من خصومه فعليه أن يزيد فى فضله على هذا الإنسان ، وهنا يزداد هذا الخصم غيظًا ومرارة ، أيضًا نجد أن من تعاليم الإسلام أن الإنسان المؤمن لا يقابل السيئة التى يصنعها فيه آخر بسيئة ، وذلك حتى لا يرتكب الذنب نفسه ، ولكن يتبع القول المأثور : « إننا لا نكافىء من عصى الله فينا بأكثر من أن نطيع الله فيه».

إنهم بإحسان المسلمين إليهم يزدادون خصومة وغيظًا وحقداً على الإسلام ، وكان المسلمون الأوائل يتصرفون بذلك الأسلوب ، لقد كانوا جبالاً إيمانية راسخة.

□□□

١٥ لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا

الموت أو القتل في سبيل ا# - بهذا القيد وبهذا الاعتبار - خير من الحياة ، وخير مما يجمعه الناس في الحياة من أعراضها الصغار : من مال وجاه وسلطان ومتاع ، خير بما يعقبه من مغفرة ا# ورحمته ، وهي في ميزان الحقيقة خير مما يجمعون وكلهم مُرْجَعون إلي ا# محشورون إليه علي كل حال ، ماتوا علي فراشهم أو ماتوا وهم يضربون في الأرض ، أو قُتِلوا وهم يجاهدون في الميدان.

يقول الحق سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٥٦) ﴾ (آل عمران)

الضرب فى الأرض هو السعى واستنباط فضل الله فى الأرض وفى سبيله لإعلاء كلمته ، فالذين كفروا يرتبون الموت والقتل والعمليات التى يفارق الإنسان فيها الحياة على ماذا ؟ على أنه ضرب فى الأرض أو خرج ليقاتل فى سبيل الله ، وقالوا : لو لم يخرجوا ما حصل لهم هذا.

سنرد عليهم ، ونقول لهم : كأنكم لم تروا أبدًا ميتًا فى فراشه ، كأنكم لم

تروا مقتولاً يسقط عليه جدار ، أو يصول عليه جمل ، أو تصيبه طلقة طائشة ، هل كل من يموت أو يُقتل يكون ضاربًا فى الأرض لشىء ؟ أو خارجًا للجهاد فى سبيل الله ؟

إذن : فهذا حمق فى استقراء الواقع ، وجاء الحق بذلك ليعطينا صورة من حكمهم على الأشياء ، إنه حكم غير مبنى على قواعد استقرائية حقيقية ، فإذا عرفنا أنهم كفروا نقول : هذه طبيعتهم ، لأننا نجد أن حكمهم ليس صحيحًا فى الأشياء الواضحة ، وما دام حكمهم ليس صحيحًا أو حقيقيًا فى الجزئيات التى تحدث ، فإذا عرفتم أنهم كفروا فهذا كلام منطقى بالنسبة لهم ، فشأنهم أنهم لا يثبتون فى أحكامهم ، فلا عجب ـ إذن ـ أن كانوا كافرين.

﴿ **أَوْ كَانُوا غُزًّى** (١٥٦) ﴾ (آل عمران) ، وغُزّى : جمع غَازٍ ، مثل : صُوَّم وقُوَّم . يعنى جمع : صائم وقائم.

﴿ **لَوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ** (١٥٦) ﴾ (آل عمران) إذن : فالله سبحانه وتعالى يصور لهم ما يقولونه ليعذبهم به ، كيف ؟ لأنهم عندما يقولون : لو كانوا عندنا لَكُنَّا منعناهم أن يخرجوا أو يُقتلوا . إذن : فنحن السبب.

وهكذا نجد أنهم كلما ذكروا قتلاهم أو موتاهم يعرفون أنهم أخطأوا ، وهذه حسرة فى قلوبهم ، ولو أنهم ردوها إلى الحق الأعلى لكان فى ذلك راحة لهم ، ولما كانوا قد أدخلوا أنفسهم فى متاهة ، ويحدث منهم هذا حتى نعرف غباءهم أيضًا ، فهم أغبياء فى كل حركاتهم وفى استقراء الأحداث الجزئية ، وأغبياء فى استخراج القضية الإيمانية الكلية ، أغبياء فى أنهم حشروا أنفسهم وأدخلوها فى مسألة ليست من شأنهم ، فأراد ربنا سبحانه وتعالى أن يجعل ذلك حسرة عليهم .

﴿لَوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ (١٥٦)﴾ (آل عمران) إن القضية الإيمانية هى ﴿وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ (١٥٦)﴾ (آل عمران) أى : هو الذى يهب الحياة ، وهو الذى يهب الموت ، فلا الضرب فى الأرض ، ولا الخروج فى سبيل الله هو السبب فى الموت.

ولذلك يقول خالد بن الوليد رضي الله عنه : لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما فى جسدى موضع شبر إلا وفيه ضربة سيف أو طعنة رمح ، وهأنذا أموت على فراشى كما يموت العير ـ أى : حتف أنفه ، فلا نامت أعين الجبناء .

ويختم الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٥٦)﴾ (آل عمران) ، فكأنهم قد بلغوا من الغباء أنهم لم يستتروا حتى فى المعصية ، ولكنهم جعلوها حركة تُرى ، وهذا القول هنا أقوى من «عليم» ، لأن عليم تؤدى إلى أن نفهم أنهم يملكون بعضًا من حياء ويسترون الأشياء ، ولكن علم الله هو الذى يفضحهم ، لا ، هى صارت حركة واضحة بحيث تُبْصر ، فجاء قوله ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٥٦)﴾ (آل عمران).

ويقول الحق من بعد ذلك : ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧)﴾ (آل عمران)

والذى يحرص على ألا يخوض المعركة مخافة أن يُقتل ، فما الذى يرجح عنده هذا العمل ؟ إنه يبتغى الخير بالحياة ، وما دام يبتغى الخير بالحياة . إذن : فحركته فى الحياة فى وهمه ستأتيه بخير ، فهو يخشى أن يموت ويترك ذلك الخير ، إنه لم يمتلك بصيرة إيمانية.

ونقول له : الخير فى حياتك على قدر حركتك ، قوة وعلمًا وحكمة ، أما

تمتعك حين تلتقى بالله شهيداً فعلى قدر ما عند الله من فضل ورحمة ، وهى عطاءات بلا حدود.

إذن : فأنت ضيعتَ على نفسك الفرق بين قدرتك وحكمتك وعلمك وحركتك فى الكسب ، وبين ما يُنسب إلى الله فى كل ذلك.

ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧)﴾ (آل عمران)

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ (١٥٨)﴾ (آل عمران)

ولنا أن نلحظ أن قول الحق فى الآية الأولى جاء بتقديم القتل على الموت ، قال تعالى : ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ (١٥٧)﴾ (آل عمران) وجاء فى هذه الآية بتقديم الموت على القتل.

قال جل شأنه : ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ (١٥٨)﴾ (آل عمران) فقدَّم القتل على الموت فى الآية الأولى لأنها جاءت فى المقاتلين ، والغالب فى شأنهم أن من يلقى الله منهم ويفضى إلى ربه يكون بسبب القتل أكثر مما يكون بسبب الموت حتف أنفه.

أما هذه الآية فقد جاءت لبيان أن مصير جميع العباد ومرجعهم يوم القيامة يكون إلى الله تعالى ، وأن أكثرهم تزهق نفسه وتخرج روحه من بدنه بسبب الموت ، فلذا قدَّم الموت هنا على القتل ، إذن : فكل كلمة وجملة جاءت مناسبة لموقعها ، إنه قول الحكيم الخبير.

وهذا مثل قوله تعالى : ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ

﴿كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ﴿١٥٤﴾﴾ (آل عمران)

وهذه هى الفضيحة لهم ، فماذا كانوا يريدون أن يكون لهم ؟ كانوا يريدون ألاَّ يخرجوا للمعركة فقالوا : لو كان لنا من الأمر شىء واتبعنا منطقنا ، لما جئنا الموقعة هنا وحصل لنا ما حصل ، هذه واحدة ، أو لو كان لنا شىء من الظفر الذى وعد الله به محمداً وأصحابه ما قُتلنا ههنا .

فعلى الرأيين يصح المعنى ، فكأنهم أرادوا أن يعللوا القتل أو الموت بأسباب ، ومن الذى قال : إن القتل أو الموت يتعلق بأسباب : إن الموت قضية تطرأ لإعدام الحياة ، وهى مجهولة السبب ، ومجهولة الزمان ، ومجهولة المكان ، ومجهولة العمر.

إذن: فما دامت المسألة مجهولة ، فلماذا ربطتم بين القتل والموقعة ؟ وهل لم تروا إنساناً قد قُتِل وليس فى موقعة ؟ لو أن القتل لا ينشأ إلا فى مواقع قتال وحرب لكان لكم أن تقولوا هذا ، وإنما القتل والموت قضية عامة لها واقع فى حياتكم.

هذا الواقع لم يرتبط بأرض ، ولم يرتبط بزمان ، ولم يرتبط بسنٍّ ، ولم يرتبط بسبب ، وإنما الموت يأتى لأنك تموت ، انتهت المسألة.

إذن : فهم عندما ربطوا القتل والموت بالموقعة ، فهم قد خرجوا عن القضية الإيمانية ، ولذلك يأتى الرد من الحق سبحانه بأمر واضح للرسول ﷺ : ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ﴿١٥٤﴾﴾ (آل عمران)

فكأنك أيها الميت قد تكون أحرص على لقاء الموت من حرص الموت عليك ، بدليل أننا قلنا : إن الإنسان يكون مريضًا ، ويُلِح على أن تجرى له عملية جراحية فيعتذر الطبيب قائلاً : عندى عدد كبير من الجراحات فانتظر

شهـراً ، فيأتى لـه المريض بواسطة لكى يقبل الطبـيب إجراء العمـلية الجراحـية ويُلِحّ عليـه ، ويعلى أجـر الطبـيب وقـد يموت المريض . إذن : فـهـو يلح على الموت أم لا ؟ إنه يلح على الموت.

يقول الحق سبحانه : ﴿**قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ .. (١٥٤)**﴾ (آل عمران)

وهكذا خَرُّوا جـميعًـا فى قاع الهلاك ، ولم تحـمهم حصـونهم من العذاب الذى قدَّره سبحانه.

والحق سبحانه يقرر حقيـقة لا فرار منها ، فيقول : ﴿ **أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ (٧٨)**﴾ (النساء)

فالحق سبحـانه هنا يتعرض لقضية الموت مع المكان ، فـالعقل البشرى الذى يتوهم أن بإمكانه الاحتياط من الموت ـ مكانًا ـ عليه أن يعى جيداً أنه لا يستطيع ذلك ، فـوجود الشـخص عند ظرف مـا لا يدفع ولا يمنع عنه الموت ، فـالعندية سواء فى معسكر الكفر أو فى معسكر الإيمان لن تمنع حدوث الموت.

فأينـما تُوجَدوا يـدرككم الموت ، وكلمة «يدرككم» دليل علـى أن الإنسان عندما تدب فيه الـروح ينطلق الموت مع الروح ، إلى أن يدركها فى الزمن الذى قدَّره الله ، وكلمة «يدرك» توضح لنا أن الموت يلاحق الروح ، حـتى إذا أدركها سلبها.

وكمـا قال الأثر الصـالح عن مـلاحقة المـوت للحيـاة : « حتى إذا أدركـها جرت ، فـلا أحد منكم إلا هو مُدْرك». ولـذلك يقول أهل المعرفـة والإشراق : «الموت سهم أُرسِل إليك ، وإنما عمرك هو بقدر سفره إليك».

وساعة يتكلم سبحانه عن الموت وعن الحياة فى الجهاد ، فهو يريد أن يُخرِج الناس من الظلمات إلى النور ، لأن الدين هو نور طارىء على ظُلْمة ، والذين يعيشون فى الظلام يكونون قد ألفوا الظلمة والفوضى ، وكل منهم يعربد فى الآخرين ، وعندما جاء الدين فرّ بعضهم من مجىء النور ، لأن النور يحرمهم من لذّات الضلال ، ولأن النور يوضح الرؤية.

لذلك يوضح سبحانه وتعالى أنه أتى بالموت ليؤدى شيئين:

الأمرالأول : أن من يؤمن عليه أن يستحضر الموت ، لأن جزاءه لا يكون له منفذ إلا أن يموت ويلقى ربه ، ويعلم أن الحاجب بينه وبين جزاء الخالق هو الموت ، فساعة يسمع كلمة الموت فهو يستشرف للقاء الله ، لأنه ذاهب إلى الجزاء.

والأمر الثانى: أن غير المؤمن يخاف الموت ويخشاه ولا يستعد له ويخاف أن يلاقى ربه ، إذن: فكلمة الموت تعطى الرَّغَب والرهَب ، فصاحب الإيمان ساعةَ يسمع كلمة الموت يقول لنفسه : إن متاعب الدنيا لن تدوم ، أريد أن ألقى ربى.

ولذلك يجب أن يستحضر المؤمنون بالله تلك القضية ، وحين يستحضرون هذه القضية يهون عليهم كل مصاب فى عزيز ، فالإنسان ما دام مؤمنًا فهو يعرف أن العزيز الذى راح إما مؤمن وإما غير مؤمن ، فإن كان مؤمناً فليفرح له المؤمن الذى افتقده ، لأن الله عجَّل به ليرى خيره ، فإن حزنت لفقد قريب مؤمن فأنت تحزن على نفسك ، وإن كان الذى ذهب إلى ربه غير مؤمن ، فالمؤمن يرتاح من شره.

إذن : الموت راحة ، والذى عمل صالحًا يستشرف إليه ، وهذا رغب ، أما الكافر فهو خائف ، وهذا رهب.

ولذلك ، فمن الحمق أن يحزن الإنسان على ميت ، وعليه أن يلتفت إلى قول الحق : ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴿٧٨﴾﴾

(النساء)

١٦

صبر ومصابرة ومُرابطة

الصبر هو زاد الطريق في هذه الدعوة ، إنه طريق طويل شاق ، حافل بالعقبات والأشواك ، مفروش بالدماء والأشلاء ، وبالإيذاء والابتلاء .

ولا يجب أن ينفد صبر المؤمنين علي طول المجاهدة، بل يظلُّون أصبر من أعدائهم وأقوي ، بمقابلة الصبر بالصبر ، والإصرار بالإصرار ، وهذه هي المصابرة ، مع مرابطة لمواجهة أعداء الإسلام في كل ثغر ممكن ، ونحن علي تقوي لله حتي لا نتساوي مع أعدائنا ، فننهزم لأننا لسنا في معية الله.

يقول الحق سبحانه : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠)** ﴾ (آل عمران)

هذه الآية هي من الآيات التى خُتِمت بها سورة آل عمران ، قالت عائشة ﵂ أن رسول الله ﷺ قام إلى قِرْبة فتوضأ ، ثم قام فبكى ، ثم قرأ فبكى ، ثم أثنى على الله وحمده فبكى ، حتى ابتلتْ الأرض ، ثم جاء بلال ، فقال : يا رسول الله صلاة الغداة . فرآه يبكى. فقال : يا رسول الله ، أتبكى وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟

فقال رسول الله : أفلا أكون عبداً شكوراً .. يا بلال لقد نزل علىَّ الليلة : ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ (١٩٠)**﴾

(آل عمران) إلى قوله تعالى ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠)** ﴾ (آل عمران)

ثم قال رسول الله ﷺ : « فويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها ، وويل لمن لاَكَها بين فكَّيْه ولم يتأملها »(١).

فهذه الآية هى ختام سورة آل عمران ، وسورة آل عمران جاءت بعد سورة البقرة ، والسورتان تشتركان معًا فى قضية عقدية أولى ، هى الإيمان بالله والتصديق بمحمد ﷺ ، وبما جاء به من عند الله خاتمًا للرسالات ومهيمنًا عليها.

ولذلك تكلم الحق عن قضية الإيمان وقضية الهدى ، وقضية الكتاب ، ثم تعرَّض الحق لرواسب ديانات سابقة تحولت عن منهج الله إلى أهواء البشر ، فجادل فى سورة البقرة اليهود ، وجادل فى سورة آل عمران النصارى.

وبعد ذلك عرض قضية إيمانية تتعلق بموقف المسلمين المؤمنين بالله وبتصديق رسوله فى معترك الحياة ، وعرض معركة من المعارك ابْتُلِى فيها المؤمنون ابتلاءً شديداً ، ثم عرض للقضية الإيمانية حين يشوب المؤمن المتخاذل إلى منهج ربه.

وبعد أن ينتهى من هذه يقول الحق سبحانه : ﴿يأيها الذين آمنوا﴾ أى : يا مَنْ آمنتم بما تقدم إيماناً بالله ، وتصديقًا بكتابه ، وتصديقًا برسالته ﷺ ، وتمحيصًا للحق مع اليهود ، وتمحيصًا للحق مع أهل الكتاب جميعًا ، تمحيصًا لا جدليًا نظريًا ، ولكن واقعيًا فى معركة من أهم معارك الإسلام ، وهى معركة

(١) قال الحافظ العراقى فى تخريجه لـ «إحياء علوم الدين» (٤/ ١١٧) : «أخرجه الثعلبى من حديث ابن عباس ، وفيه أبو جناب يحيى بن أبى حية ، ضعيف».

أُحُد.

فيا مَنْ آمنتم بالله إيمانًا صادقًا صافيًا ، استمعوا إلىَّ يا مَنْ آمنتم بى : (اصبروا) ، وهذا أمر . و (صابروا) أمر ثانٍ . و (رابطوا) أمر ثالث. و (اتقوا الله) أمر رابع.

إنها أربعة أوامر ، والغاية من هذه الأوامر هى ﴿ **لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ (آل عمران: ٢٠٠). إذن : فمَنْ عشق الفلاح فعليه أنْ ينفذ هذه الأربعة : اصبر ، صابر ، رابط ، اتق الله . لعلك تفلح.

والحق سبحانه وتعالى حين يعبر عن الفَلاَح إنما يعبر بأمر مشهود مُحسٍّ للناس جميعًا ، لم يَقُلْ لك : افعل ذلك لتنجح أو لتفوز ، إنما جاء بكلمة «الفلاح» . و «الفلاح» كما قلنا : مأخوذ من فلح الأرض . وفَلْح الأرض هو شَقُّها لتتعرض للهواء ، ولتكون سهلة هيِّنة تحت الجذيْر البسيط الخارج من البذرة ، فإذا فلحت الأرض بهذه المشقة حرثًا وبذرًا وتعهدًا بالرى ماذا يحدث لك من الأرض ؟ إنها تُؤتيك خيرًا ماديًا مشهودًا ملحوظًا.

إذن : فقد ضرب الله المثل فى المعنويات بالأمر المُحسّ الذى يباشره الناس جميعًا ، وأىّ فلاح هذا الذى يقصده الحق سبحانه وتعالى ؟ إنه فلاح الدنيا وفلاح الآخرة ، فلاح الدنيا بأن تنتصروا على خصومكم ، وأنْ تعيشوا معيشة آمنة مستقرة رغدة ، وفلاح الآخرة أنْ تأخذوا حظكم من الخلود فى النعيم المقيم.

وما دام سبحانه يقول : اصبروا ، فلابُدَّ أن يكون هذا إيذانًا بأن فيه مشقة ، فالإيمان يؤدى إلى الجنة ، والجنة محفوفة بالمكاره ، لذلك لابُدَّ أنْ تكون فيه

مشقات.

وإذا نظرتَ إلى تلك المشقات تجدها فى ذات النفس منفصلة عن المجتمع تارة ، وتجدها فى ذات النفس مع المجتمع تارة أخرى ، أما فى ذات النفس فهى مفصولة عن المجتمع ، فإن الصبر يقتضى أن تصبر على تنفيذ أمر الله فى فِعْل الطاعات وعلى تحمُّل الألم منه فى ترك المعاصى ، وإنْ كان ذلك يمنعك عن لذة شهوة تحبها ، فإنك تصبر عن تلك الشهوة التى تُلِح عليك.

فمجاهدة المؤمن أنْ يصبر عن الشهوات التى نهى الله عنها ، والأشياء التى تصيب الإنسان يصبر عليها ، فالمصيبة فى النفس يصبر عليها ، والأشياء التى يصبر عنها من النواهى هى الشهوات والمتع التى يحرمها الله.

وكأن الحق سبحانه وتعالى يقول : إننى خلقتُك وأعلم منازعة نفسك إلى الشهوة ، لأنك تحبها فاصبر عنها ، والأمور التى فى الطاعة إنْ فعلتها ستورثك مشقة فى ذاتك ، اصبر عليها . إذن : ففى الأوامر صبر على تنفيذها ، وفى المناهى صبر عن إيقاعها ، هذه كلها فى الذات.

وبعد ذلك ، إذا تعدَّتْ المسألة من الذاتية إلى المحيط الخارجى ، فالحق سبحانه يقول : ﴿**وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ** ﴿١٧٧﴾﴾ (البقرة)

يقول : ﴿الصابرين فى﴾ . فعندنا «صابر على» ، و «صابر عن» ، و «صابر فى». ﴿**وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ** ﴿١٧٧﴾﴾ (البقرة) التى تقع عليهم من المجتمع الخارج عنهم ، وكيف تصيبهم البأساء من المجتمع الخارج عنهم؟

نعم ، لأن منهج الحق إنما يجىء ليصوِّب الخطأ فى حركة المجتمع ، والخطأ

فى حركة المجتمع إنما يستفيد منه أناس وهم يحرصون جاهدين أنْ يصدُّوا منْ يريدون تثبيت منهج الله.

إذن : فَهُمْ لا يُقصِّرون فى إيذائهم ، وفى السخرية منهم ، وفى إتعابهم ، وفى حربهم ، وهذا صبر فى البأساء والضراء وحين البأس ، وإذا كان عدوك الذى جئت لتدحضَ منهجه الباطل بمنهجك الحق صابرك وصابر أيضًا على إيذائك ، فعليك أن تُصابره.

ماذا يعنى ذلك ؟ يعنى أن «اصبر» غير «صابر» ، فاصبر هو أمر فى نفسك ستصبر عليه ، ولكن هَبْ أن خصمك صبر أيضًا على إيذائك ، وصار عنده جَلَد ليقف أمامك هنا.

الحق يأمرك هنا بأن تصابره ، أى : إذا كان عدوك يصبر قليلاً فعليك أنت أنْ تَقْوى على الصبر عليه ، أى : أنْ تجىء بصبر فوق الصبر الذى يعارضك ، وكل مادة «فاعَل» هكذا.

فالمصابرة تعنى إنْ كان خصمك يصابرك فأنت تصبر وهو يصبر ، فتصبر أنت أكثر ، ولهذا تحتاج المسألة إلى أنْ يتكاتف المجتمع كله على المصابرة ، ولذلك جاء قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿**وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣**﴾ (العصر)

أى : أنك إذا رأيتَ أخًا من إخوانك المؤمنين يخور ويضعف فى مصابرته فتحثّه على المصابرة ، وقُلْ له : إياك أنْ تخور ، لماذا ؟ لأن النفس البشرية من الأغيار ، وقد يأتى لها حدث يَقْوى عليها ، فالمؤمن الذى ليس عنده هذه الأغيار ينفخ بالعزيمة فيمَنْ يخور ، فقال الحق «تواصوا» . ولم يَقُلْ : جماعة يُوصُون جماعة ، لا.

فالتواصى أنْ تكون أنت مرة موصيًا ، ومرة مُوصّىً ، فساعة لا يكون عندك ضعف الأغيار فَوصِّ ، وساعة يكون عندك ضعف الأغيار تُوصَّى ، فكل واحد مُوصٍ فى وقت ، ومُوصىً فى وقت آخر ، ولا نتواصى هذه التوصية على الصبر إلاَّ إذا كنا تواصينا أولاً على الحق الذى من أجله نشأت المعركة بين صابر وصابر.

ويقول تعالى فى آية أخرى : ﴿ **بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ** (١٢٥) ﴾ (آل عمران)

فالصبر وحده لا يكفى ، بل لابدَّ أيضًا من تقوى الله ، ولابُدَّ كذلك من المصابرة بمغالبة العدو فى الصبر ، لذلك يقول المولى سبحانه ﴿ **اصْبِرُوا وَصَابِرُوا** ﴾ (آل عمران : ٢٠٠)، وذلك لأن العدو قد يملك هو أيضًا ميزة الصبر ، لهذا يزيد الله الصابر ، فإن صبر العدو على شىء فاصبر أنت أيها المؤمن أكثر منه.

فإنْ واجهكم عدوكم بالصبر ، فليكُنْ صبركم أقوى منه ، فتغلبوه بالصبر والتحمُّل ، فقِف صابراً فى مواجهتهم ومعك المؤمنون برسالتك.

وقَوْلُ الحق سبحانه وتعالى هنا : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** (٢٠٠) ﴾ (آل عمران). فلقد عرفنا الصبر ، وعرفنا المصابرة ، فما هو الرباط ؟ هو أن تُشعِر عدوك بأنك مستعد دائمًا للقائه ، هذا هو معنى الرباط.

والحق يقول : ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ** (٦٠) ﴾ (الأنفال). إنها خيل مربوطة للجهاد فى سبيل الله

ومستعدة ، ورسول الله ﷺ يقول : «خيركم ممسكٌ بعنان فرسه كلما سمع هَيْعة طار إليها»(١).

أى : أن نكون مستعدين قبل وقوع الهجوم ، وساعة تأتى الأمور الداهمة ننطلق لمواجهتها ، ولكن يكون استعدادنا من قِبَل الأمر الداهم ، ولذلك حين يكون عدوك عالمًا بأنك مرابط له ومستعد للحركة فى أىِّ وقت يرهبك ويخافك ، أما إذا كنتَ فى استرخاء وغفلة ، فإنه يدهمك ، فإلى أنْ تستعد يكون قد أخذ منك الجولة الأولى.

إذن : فما فائدة الرباط؟ فائدته أنْ يُعلم أنك لم تغفل عن عدوك ، وأنك لن تترك العُدَّة والاستعداد له إلى أنْ يأتى بالمداهمة ، ولكن تكون أنت مستعدًا لها فى كل وقت ، والرباط لا يكون فقط أنْ ترابط بالخيل للعدو المهاجم هجومًا ماديًا ، بل المرابطة تعنى : الإعداد لكل ما يمكن أن يَرُدَّ عن الحق صيحة الباطل ، فمن المرابطة أنْ تُعِدَّ الناشئة الإسلامية لوافدات الإلحاد قبل أنْ تَفِد ، لماذا ؟

لأن المسألة ليست كلها غزواً بخيل وسلاح وعُدَد ، فقد يكون الغزو بالفكر الذى يتسرب إلى النفوس من حيث لا تشعر ، فإذن لابُدَّ أن تكون أيضًا فى الرباط الذى يمد المؤمن بقدرة وطاقة المواجهة ، بحيث إذا جاءت قضية من قضايا الإلحاد التى قد تَفِد على المؤمنين يكون عند كل واحد منهم الحصانة ضدها والقدرة على مواجهتها.

---

(١) عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: « من خير معاش الناس لهم ، رجل ممسك عنان فرسه فى سبيل الله ، يطير على متنه ، كلما سمع هيعة أو فزعة طار عليه ، يبتغى القتل والموت مَظَانَّه» أخرجه مسلم فى صحيحه (١٨٨٩) كتاب الإمارة ، وأحمد فى مسنده (٢/ ٤٤٣).

لقد قلنا : إن آفة المناهج العلمية أنهم أخذوا مناهجهم عن الغرب ، فدرسوا التاريخ كما يدرسه الغرب ، ودرسوا الطبيعة كما يدرسها الغرب ، ونسوا أن لنا ديناً يحمينا من كل هذه الأشياء ، فعندما يأتيني رجل التاريخ بمنهجه من الغرب ، ويقول إن الثورة الفرنسية هي التي أعلنت حقوق الإنسان ، هنا يجب أن تكون عندنا مناعة وترابط ، ونقول له : في أيِّ سنة نشأتْ الثورة الفرنسية ؟

لقد نشأت منذ سنوات قليلة ، وقد تزيد أو تنقص على المائتي سنة ، وأنتم تجهلون أن الدين الإسلامي جاء منذ أربعة عشر قرناً بحقوق الإنسان ، واقرأوا القرآن ، فلو أن كل تلميذ حين يسمع أن الثورة الفرنسية هي التي أعلنت حقوق الإنسان ، يقول لهم : لا ، أنت تعلم أن ذلك حدث في القرن السابع عشر ، لكن لماذا لا تلتفت إلى أنه منذ أربعة عشر قرنًا جاء الإسلام بهذا المبدأ ، والتفت إلى الإساءة في استعمال الحق ، فإذا كنتَ تجهل تشريع الله فلا يصح أنْ يؤدي بك هذا الجهل إلى طمس معالم الحق في منهج الله.

وإذا قال دارس للطبيعة : إن الطبيعة أمدَّتْ الحيوان الفلاني باللون الذي يناسب البيئة التي يعيش فيها حتى لا يفتك به عدوه ، وهو بذلك يضلله ، نقول له : إن الطبيعة لا تمد ، الطبيعة مُمدَّة من الله.

إذن : فالرباط لا يكون بقوة عسكرية فحسب ، بل بالقوة العلمية أيضًا ، فخصوم الإسلام قد يئسوا من أنْ ينتصروا على الإسلام بقوة عسكرية بعد أن كتَّلوا كلَّ قواهم في الحروب الصليبية ، ولم يبْقَ لهم إلا أنْ يدخلوا علينا من خلال مناهجهم ، ومن خلال المستشرقين هناك ، والمستغربين منا ، فينقلوا لنا ثقافات أجنبية بعيدة عن منهجنا ، وهم معذورون لأنهم لا يعلمون منهج الله في دين الله.

إذن : فالرباط لا بُدَّ أن يكون أيضًا فى رباط الأفكار ، ورباط العلم المادى.

إن خصوم الإسلام يدخلون على الناس من مداخل متعددة ، فيجب أن ننبه النشء إليها ، يقولون : أوربا ارتقتْ حضاريًا وأنتم يا مسلمون تخلفتم . نقول لهم : هل كان التخلف مقارنًا للإسلام؟ لقد كانت الدولة الإسلامية هى الدولة الحضارية الأولى فى العالم لمدة ألف سنة ، وأوربا التى تتشدَّقون بحضارتها كانت تعيش فى العصور المظلمة . إن هؤلاء لم يعرفوا تاريخنا ، أو هم يتكلمون لأناس لا يعرفون تاريخهم.

إذن : فالمرابطة أنْ توضح أمور دينك توضيحًا يقف أمام أى وافدة قبل أن تَفِدَ بالعدوان المسلح ، ويجب أنْ تقف لغزو الأفكار ولهدم المبادئ ، ولذلك قال الحق : «اصبروا» ، و «صابروا» ، و «رابطوا» ، وجماع كل ذلك «الصبر على» ، و « الصبر عن » ، و « الصبر فى » والمصابرة للعدو والتواصى بالصبر ، والرباط بمعنييه المادى والمعنوى ، أى : بالأمور المادية والأمور المعنوية القيمية.

□□□

١٧ حقوق المرأة

لم تعرف الجاهلية قبل الإسلام للمرأة حقوقها الإنسانية ، فنزلت بها نزولاً شنيعًا عن منزلة الرجل ، بل كانت شبه سلعة تتَّخذ للتسلية والمتعة فجاء الإسلام ليرفع عنها هذا كله ، ويردّها إلي مكانها الطبيعي في كيان الأسرة ، وإلي دورها الجَدِّي في النظام البشري.

يقول الحق سبحانه :﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا** ﴿١٩﴾ ﴾ (النساء)

يريد الحق سبحانه وتعالى أن يعالج قضية تتعلق بالنساء وباستضعافهم ، لقد جاء الإسلام والنساء فى الجاهلية فى غَبْن وظلم وحَيْف عليهن .

والحق سبحانه يقول : ﴿**لا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا** ﴿١٩﴾﴾ (النساء)

فهل المقصود ألاَّ يرث الوارث من مورثه إماء تركهن ؟ لا . إن الوارث يرث من مورثه الإماء اللاتى تركهن ، ولكن عندما تنصرف كلمة «النساء» تكون لأشرف مواقعها أى : للحرائر ، لأن الأخريات تعتبر الواحدة منهن مِلْك يمين.

﴿لا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا ﴿١٩﴾﴾ (النساء) ، وهل هناك ميراث للنساء برضى ؟ وكيف تورث المرأة؟

ننتبه هنا إلى قوله سبحانه (كرهًا) ، وكان الواقع فى الجاهلية أن الرجل إذا مات وعنده امرأة جاء وليُّه ، وألقى ثوبه على امرأته فتصير مِلْكًا له ، وإن لم تقبل فإنه يرثها كرهًا ، أو إن لم يكن له هوى فيها فهو يحبسها عنده حتى تموت ويرثها ، أو يأتى واحد ويُزوِّجها له ، ويأخذ مهرها لنفسه ، كأنه يتصرف فيها تصرُّف المالك.

لذلك جاء القول الفصل : ﴿لا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلا تَعْضُلُوهُنَّ ﴿١٩﴾﴾ (النساء) ، والعضل فى الأصل هو المنع ، ويقال «عضلت المرأة بولدها» ، ذلك أصل الاشتقاق بالضبط ، فالمرأة ساعة تلد ، فمن فضل الله عليها أن لها عضلات تنقبض وتنبسط ، تنبسط فيتسع مكان خروج الولد ، وقد تعضل المرأة أثناء الولادة ، فبدلاً من أن تنبسط العضلات لتفسح للولد أن يخرج تنقبض ، فتأتى هنا العمليات التي يقومون بها مثل القيصرية .

إذن : فالعضل معناه مأخوذ من عضلت المرأة بولدها ، أى : انقبضت عضلاتها ولم تنبسط حتى لا يخرج الوليد ، وعضلت الدجاجة ببيضها ، أى : أن البيضة عندما تكون فى طريقها لتنزل فتنقبض العضلة فلا تنزل البيضة ، لأن اختلالاً وظيفيًا قد حدث نتيجة للحركة الناقصة.

ولماذا تأتى الحركة ناقصة للبسط ؟ لأن الحق سبحانه وتعالى لم يشأ أن يجعل الأسباب فى الكون تعمل آليًا وميكانيكيًا ، بحيث إذا وُجِدت الأسباب يوجد المسبب ، لا ، ففوق الأسباب مسبب ، إن شاء قال للأسباب : قِفى فتقف.

إذن : فكل المخالفات التى نراها تتم على خلاف ما تؤديه الأسباب ، إنما هى دليل طلاقة القدرة ، فلو كانت الأشياء تسير هكذا ميكانيكيًا ، فسوف يقول الناس : إن الميكانيكا دقيقة لا تتخلف.

لكن الحق سبحانه يلفتنا إلى أنه يزاول سلطانه فى ملكه ، فهو لم يزاول السلطان مرة واحدة ، ثم خلق الميكانيكا فى الكون والأسباب ثم تركها تتصرف ، لا ، هو يوضح لنا : أنا قَيُّوم لا تأخذنى سِنَةٌ ولا نوم ، أقول للأسباب : اعملى أو لا تعملى . وبذلك نلتفت إلى أنه المسيطر .

فالعضل ، أخذنا منه كلمة «المنع» ، فعضلت المرأة أى : قبضت عضلاتها فلم ينزل الوليد ، وأنت ستعضلها كيف ؟ بأن تمنعها من حقها الطبيعى حين مات زوجها ، وأن من حقها بعد أن تقضى العدة أن تتزوج من تريد أو من يتقدم لها.

﴿ **وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ** ﴾ أى : لا تحبسوهن عندكم وتمنعوهن ، لماذا تفعلون ذلك؟

﴿ **لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ** ﴿١٩﴾ ﴾ (النساء) كأن هذا حكم آخر ، لا ترثوا النساء كرهًا هذا حكم ، وأيضًا لا تعضلوهن حكم ثانٍ .

والمثال عندما يكون الرجل كارهًا لامرأته فيقول لها : والله لن أطلقك ، أنا سأجعلك موقوفة ومعلقة لا أكون أنا لك زوجًا ، ولا أُمكنك أيضًا من أن تتزوجى ، وذلك حتى تفتدى نفسها ، فتبرئ الرجل من النفقة ومُؤخَّر الصداق ، فيحمى الإسلام المرأة ، ويُحرِّم مثل تلك الأفعال.

ويحرم الإسلام نوعًا آخر من العضل ، وهو منع المرأة من الرجوع والتزوج بمن طلقها قبلاً ، وهذا يقع فيه أهل المرأة ، يقول الحق سبحانه : ﴿**وَإِذَا طَلَّقْتُمُ**

النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ﴿٢٣٢﴾ (البقرة)

فالله سبحانه وتعالى يريد أن يحصر مناقشة الأسباب فى الانفصال أو الاستمرار بين الزوج والزوجة فقط ، فلا تتعدى إلى غير الزوج والزوجة ؛ لأن بين الاثنين من الأسباب ما قد تجعل الواحد منهما يُلين جانبه للآخر.

لكن ، إذا ما دخل طرف ثالث ليست عنده هذه ، فسوف تكبر فى نفسه الخصومة ، ولا توجد عنده الحاجة فلا يُبقى على عِشْرة الزوجين ، فإذا ما تدخَّل الأب أو الأخ أو الأم فى النزاع فسوف تشتعل الخصومة ، وكل منهم لا يشعر بإحساس كل من الزوجين للآخر ، ولا بليونة الزوج لزوجته ، ولا بمهادنة الزوجة لزوجها ، فهذه مسائل عاطفية ونفسية لا توجد إلا بين الزوج والزوجة ، أما الأطراف الخارجية فلا يربطها بالزوج ولا بالزوجة إلا صلة القرابة ، ومن هنا فإن حرص تلك الأطراف الخارجية على بقاء عِشْرة الزوجين لا يكون مثل حرص كل من الزوجين على التمسك بالآخر.

ولذلك يجب أن نفهم أن كل مشكلة تحدث بين زوج وزوجته ولا يتدخل فيها أحد تنتهى بسرعة بدون أم أو أب أو أخ ، ذلك لأنه تدخُّل طرف خارجى لا يكون مالكًا للدوافع العاطفية والنفسية التى بين الزوجين ، أما الزوجان فقد تكفى نظرة واحدة من أحدهما للآخر لأنْ تعيد الأمور إلى مجاريها.

فقد يُعجب الرجل بجمال المرأة ويشتاق إليها ، فينسى كل شيء ، وقد ترى المرأة في الرجل أمرًا لا تحب أن تفقده منه ، فتنسى ما حدث بينهما ، وهكذا ، لكن أين ذلك من أمها وأمه ، أو أبيها وأبيه؟ ليس بين هؤلاء وبين الزوجين أسرار وعواطف ومعاشرة وغير ذلك.

ولهذا ، فأنا أنصح دائماً بأن يظل الخلاف محصوراً بين الزوج والزوجة ؛ لأن الله قد جعل بينهما سيالاً عاطفيًا ، فلابد أن تكون الخلافات بين الزوج والزوجة فى إطار الحياة الزوجية ، حتى يحفظهما سياج المحبة والمودة والرحمة ، أما تدخُّل الأطراف الأخرى فهو يحطم هذا السياج ، أيّاً كان الطرف أمًا أو أباً أو أخاً.

ولكن ، متى تعضلوهن ؟ هنا يقول الحق : ﴿ **إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ** ﴾ (النساء (١٩)) لأنهم سيحبسونهن ، وهذا قبل التشريع بالحد.

وقال بعض الفقهاء : للزوج أن يأخذ من زوجته ما تفتدى به نفسها منه ، وذلك يكون بمال أو غيره إذا أتت بفاحشة من زنا أو سوء عِشْرة ، وهذا ما يسمى بالخلع وهو الطلاق بمقابل يطلبه الزوج.

ويتابع الحق سبحانه الحديث عن حق آخر من حقوق المرأة ، فيقول : ﴿**وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ** (١٩)﴾ (النساء) وكلمة «المعروف» أوسع دائرة من كلمة المودة ، فالمودة هى أنك تحسن لمن عندك ودادة له ، وترتاح نفسك لموادته ، أنك فَرِح به وبوجوده ، لكن المعروف قد تبذله ولو لم تكره ، وهذه حَلَّتْ لنا إشكالات كثيرة.

فعندما أراد المستشرقون أن يبحثوا فى القرآن ليجدوا شيئًا يدَّعون به أن فى القرآن تعارضًا قالوا :

قرآنكم يقول : ﴿**لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** (٢٢)﴾ (المجادلة)

كيف لا يُواد المؤمن ابنه أو أباه أو أحداً من عشيرته لمجرد كفره ، والقرآن فى موضع آخر منه يقول : ﴿ **وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا (١٥)** ﴾ (لقمان)

ونقول : إن هؤلاء لم يفهموا الفرق بين المودة والحب . فـ «الود» شىء . و «المعروف» شىء آخر ، الود يكون عن حب ، لكن المعروف ليس ضروريًا أن يكون عن حب ، ساعة يكون جائعًا سأعطيه ليأكل وأُلبِّى احتياجاته المادية.

هذا هو المعروف ، أما الود فهو أن أعمل لإرضاء نفسى ، وساعة يعطف الرجل المؤمن على أبيه الكافر لا يعطف عليه نتيجة للوُدِّ ، إنما هو يعطف عليه نتيجة للمعروف ؛ لأنه حتى لو كان كافراً سيعطيه بالمعروف.

ألم يعاتب الحق سبحانه إبراهيم فى ضيف جاء له ، فلم يكرمه لأنه سأله وعرف منه أنه غير مؤمن ، لذلك لم يُضيِّفه ؟ فقال له ربنا : أمن أجل ليلة تستقبله فيها تريد أن تغير دينه ، بينما أنا أرزقه أربعين سنة وهو كافر؟

فماذا فعل سيدنا إبراهيم ؟ جرى فلحق بالرجل وناداه . فقال له : يا رجل ما الذى جعلك تتغير هذا التغيير المفاجئ ؟ فقال له إبراهيم : والله إن ربى عاتبنى لأنى صنعت معك هذا . فقال له الرجل : أربُّك عاتبك وأنت رسول فىّ وأنا كافر به ؟ فنِعْم الرب رب يعاتب أحبابه فى أعدائه ، فأسلم.

هذا هو المعروف ، الحق يأمرنا أننا يجب أن ننتبه إلى هذه المسائل فى أثناء الحياة الزوجية ، وهذه قضية يجب أن يتنبه لها المسلمون جميعًا كى لا يخربوا البيوت ، إنهم يريدون أن يبنوا البيوت على المودة والحب ، فلو لم تكن المودة والحب فى البيت لخرُب البيت ، نقول لهم ، بل ﴿**وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ (١٩)**﴾ (النساء) حتى لو لم تحبوهن.

وقد يكـون السبب الوحيد أنك تكره المـرأة لأن شـكلها لا يثير غرائـزك ، يا هذا أنت لم تفهم عـن الله ، ليس المفروض فى المرأة أن تثيـر غرائزك ، ولكن المفروض فـى المرأة أن تكون مصرفًـا ، إن هاجت غرائزك كـيمـاويًا بطبيـعتـها وجدت لها مصرفًا.

فأنت لا تحتـاج لواحدة تغريك لتحرك فـيك الغريزة ؛ ولذلك قال ﷺ : «إذا رأى أحدكم امـرأة فأعجبـته فليأت أهله ، فإن البُـضْع واحد ، ومعهـا مثل الذى معها»(١).

ولذلك عندما جاء رجل لسيدنا عمر رضي الله عنه وقال : يا أمير المؤمنين ، أنا كاره لامرأتـى وأريد أن أُطلّقهـا ، قال له : أو لم تُبْن البـيوت إلا على الحب ، فـأين القيم؟

لقد ظن الرجل أن امـرأته ستظل طوال عمـرها خاطفة لـقلبه ، ويدخل كل يوم ليقـبلها ، فيلفتـه سيدنا عـمر إلى أن هذه مسألة وجـدت أولاً ، وبعد ذلك تنبت فى الأسرة أشياء تربط الرجل بالمرأة ، وتربط المرأة بالرجل.

لذلك يقول الحق : ﴿**وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾**﴾ (النساء)

أنت كـرهتهـا فى زاوية ، وقـد تكون الزاوية التى كـرهتهـا فـيهـا هى التى ستجعلها تحسن فى عـدة زوايا ، لكى تعوض بإحسانها فى الزوايا الأخرى هذه

(١) نص الحديث كما أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٣/ ٣٣٠) من حديث جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ رأى امرأة فأعجبـته فأتى زينب وهى تمعس منية فقضى منهـا حاجته وقال : «إن المرأة تقبل فى صورة شيطـان وتدبر فى صورة شيطان ، فإذا رأى أحدكم امرأة فأعـجبته فليأت أهله ، فإن ذلك يرد مما فى نفسه».

الزاوية الناقصة ، فلا تَبْنِ المسألة على أنك تريد امرأة عارضة أزياء لتثير غرائزك عندما تكون هادئًا.

لا ، فالمرأة مصرف طبيعى إنْ هاجت غرائزك بطبيعتها وجدتَ لها مصرفًا ، أما أن ترى فى المرأة أنها ملهبة للغرائز ، فمعنى ذلك أنك تريد من المرأة أن تكون غانية فقط ، وأن تعيش معك من أجل العلاقة الجنسية فقط ، لكن هناك مسائل أخرى كثيرة ، فلا تأخذ من المرأة زاوية واحدة هى زاوية الانفعال الجنسى ، وخذ زوايا متعددة.

واعلم أن الله وزع أسباب فضله على خلقه ، هذه أعطاها جمالاً ، وهذه أعطاها عقلاً ، وهذه أعطاها حكمة ، وهذه أعطاها أمانة ، وهذه أعطاها وفاء ، وهذه أعطاها فلاحًا ، هناك أسباب كثيرة جدًا ، فإن كنت تريد أن تكون منصفًا حكيمًا فخذ كل الزوايا ، أما أن تنظر للمرأة من زاوية واحدة فقط هى زاوية إهاجة الغريزة ، هنا نقول لك : ليست هذه هى الزاوية التى تصلح لتقدير المرأة فقط.

﴿فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ (النساء)

وانظر إلى الدقة فى العبارة ﴿فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا﴾ فأنت تكره ، وقد تكون محقًا فى الكراهية أو غير مُحِقٍّ ، إنما إنْ كرهت شيئًا يقول لك الله عنه : ﴿وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ (النساء)

فاطمئن أنك إنْ كرهتَ فى المرأة شيئًا لا يتعلق بدينها ، فاعلم أنك إن صبرتَ عليه يجعل الله لك فى بقية الزوايا خيراً كثيراً ، وما دام ربنا هو من يجعل هذا الخير الكثير فاطمئن إلى أنك لو تنبهت لزاوية أنت تكرهها ومع ذلك تصبر عليها ، فأنت تضمن أن ربنا سيجعل لك خيراً فى نواحٍ متعددة ، إن

أى زاوية تغلبت على كرهك سيجعل الله فيها خيراً كثيراً.

إن الحق يطلق القضية هنا فى بناء الأسرة ثم يعمم ، وكان بإمكانه أن يقول : فعسى أن تكرهوهن ويجعل الله فيهن خيراً ، لا . فقد شاء أن يجعلها سبحانه قضية عامة فى كل شىء قد تكرهه ، وتأتى الأحداث لتبين صدق الله فى ذلك ، فكم من أشياء كرهها الإنسان ثم تبيَّن له وجه الخير فيها ، وكم من أشياء أحبها الإنسان ثم تبيَّن له وجه الشر فيها ، ليدلك على أن حكم الإنسان على الأشياء دائماً غير دقيق ، فقد يحكم بكره شىء وهو لا يستحق الكره ، وقد يحكم بحب شىء وهو لا يستحق الحب.

١٨ حرمة أكْل الأموال بالباطل

مقصود الإسلام علي الدوام من التكاليف الشرعية والمنهيات هو تطهير المجتمع الإسلامى من كل ما يشوب طهارته ونقاءه ، والحفاظ عليه من المهاوي التي من الممكن أن يهوي فيها بسبب أكل أموال الناس بالباطل بكل أنواعه من : غش ، وتدليس ، وربا ، واختلاس ، واحتيال ، ورشوة ، وسرقة ، واحتكار ، وبيع ما لا يباع كالعِرْض والذمة والضمير والخُلق والدين.

يقول الحق سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾ (النساء)

ها هو ذا سبحانه يتكلم عن المال ، وهو الذى يقيم الحياة ، والمال كما نعرف ثمرة الجهد والمشقة ، وكل ما يتمول يعتبر مالاً ، إلا أن المال ينقسم إلى قسمين : مال يمكن أن تنتفع به مباشرة ، فهناك من يملك الطعام ، وآخر يملك الشراب ، وثالث يملك أثوابًا ، وهذا نوع من المال يُنتفع به مباشرة ، وهناك نوع آخر من المال وهو «النقد» ولا يُنتفع به مباشرة ، بل يُنتفع به بإيجاد ما ينتفع به مباشرة.

وهكذا ينقسم المال إلى رزق مباشر ، ورزق غير مباشر ، والحق سبحانه وتعالى يريد أن يحمى حركة الحياة ؛ لأنه بحماية حركة الحياة يغرى المتحرك بأن يتحرك ويزداد حركة ، ولو لم يَحْمِ الحق حركة الحياة وثمرة حركة الحياة ، فماذا يقع ؟ تتعطل حركة الحياة.

وإننا نلاحظ أن كل مجتمع لا يُؤْمَن فيه على الغاية والثمرة من عمل الإنسان تقِلّ حركة العمل فيه ، ويعمل كل واحد على قدر قوته.

يقول لنفسه : لماذا أعمل ؟ لأنه غير آمن . لكن إذا كان آمناً على ثمرة حركته يغريه الأمن على ماله على أن يزيد فى حركة العمل ، وحين تزيد حركة العمل فالمجتمع ينتفع ، وإن لم يقصد المتحرك ، فليس ضرورياً أن يقصد الإنسان بكل حركته أن ينفع المجتمع ، لا ، اجعله يعمل لنفع نفسه.

ونضرب مثلاً هنا ، فلو أن إنسانًا عنده آلاف الجنيهات وبعد ذلك وضعها فى خزانة ثم تساءل : لماذا أضعها فى خزانة ؟ لماذا لا أبنى بها بيتًا آخر وأكري منه شقتين ، فسيأتينى منه عائد ؟ هل كان المجتمع فى بال مثل هذا الإنسان ؟ لا ، إن باله مشغول بمصلحته ؛ لذلك فلنجعل مصلحة كل إنسان فى باله ، وهنا سيستفيد المجتمع بحركته ، قصد أو لم يقصد.

فهو ساعة يأتى ليحفر الأساس سيعطى أناسًا أجورهم ، وساعة يأتي بالطوب يشتريه بثمن ، وساعة يبنى يعطى المهندس والعمال أجورهم ؛ لذلك أقول : اعمل لنفسك فى ضوء شرع الله ، وسينتفع المجتمع قهراً عنك.

ومن العجيب أنك تريد أن تنفع نفسك ، فيبين لك ربنا : أنت ستنفع غيرك قبل أن تنتفع بعائد المنزل الذى بنيتَه ، ولا تظن أن أحداً سيأخذ رزق ربنا ولن يجريه على الخلق ، لا ، إن المجتمع سينتفع بالرغم منك.

إذن : فمن حظ المجتمع أن نصون حركة الحياة ، ونُؤمِّن كل متحرك فى الحياة على ماله ، لكن إن كنا حاكمين يجب أن تكون أعيننا مبصرة : أيكسب من حلٍّ أم لا ؟ فإذا كان الكسب حلالاً نشكره ، أما إذا كان يكسب من حرام ، فنحن نسائله ، وإن عمل على غير هذا توقفت حركة الحياة ، وإن توقفت حركة الحياة ، فهذا أمر ضار بالذين لا يقدرون على الحركة ، لماذا؟

لأن الله قسم المواهب على الناس ، فليس كل واحد من الناس يملك الطموح الحركى ، ولا يملك كل إنسان فكراً يخطط به ، فقد لا يكون فى المجتمع إلا قلة تخطط ، والباقون هم جوارح تنفعل للفكر المخطط ، والفكر يعمل لجوارح كثيرة ، فكذلك يكون هناك مفكر واحد هو الذى يضع خطة ينتفع بها كثير من الناس.

إذن : فلابد أن نرعى حركة المتحرك وننميها ، لأن المجتمع ينتفع منها ، وإن لم يقصد المتحرك إلا مصلحة نفسه ، صحيح أن الذى ليس فى باله إلا نفسه إنما يحبط ثواب عمله ، وصحيح أن من يضع الناس فى باله إنما يعطى ثمرة عمله ويأخذ ثوابًا أيضًا من الله.

والحق سبحانه وتعالى يأتى فى مسائل المال ويوضحها توضيحًا تامًا ليحمى حركة الحياة ، ويُغرى الناس بالحركة ، وبذلك يتعدد المتحركون وتتعدد الحركات ويستفيد المجتمع ، فقال : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ** (٢٩) ﴾ (النساء)

وقول الحق : (لا تأكلوا) فهذا أمر لجمع . و (أموالكم) أيضًا جمع ، فيكون معناه : لا يأكل كل واحد ماله ، وكيف لا يأكل كل واحد منكم ماله ؟

يوضح الحق (بالباطل) ، فيكون مطلوبًا من كل واحد منكم ألاَّ يأكل ماله

بالباطل ، والإنسان يأكل الشيء لينتفع به ، والحق يوصيك ويأمرك : إياك أن تصرف قرشًا من مالك وتضيعه إلا فى حق ، هذا إذا كنا سنقابل المفرد ، فلا يأكل واحد منكم ماله بالباطل ، بل يوجهه إلى الأمر النافع ، الذى ليس فيه حرمة ، والذى لا يأتى بعذاب فى الآخرة.

وتحتمل الآية معنى : لا يأكل كل واحد منكم مال أخيه ، فعادةً أوامر الحق سبحانه ليست موجهة إلى طائفة خُلقت على أن تكون آكلة ، وطائفة خُلقت على أن تكون مأكولة ، بل كل واحد عُرْضة فى مرة أن يكون آكلاً لمال غيره ، ومرة أخرى يكون ماله مأكولاً.

فأنا إذا أكلت مال غيرى فسوف يأكل غيرى مالى ، فأكون قد عملت له أسوة ، ويأكل مالى أيضًا ، فكأنه سبحانه عندما يقول لك : لا تأكل مالك إنما ليحمى لك مالك .

إن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يصنع من المجتمع الإيمانى مجتمعًا واحدًا ، ويقول : إن المال الذى عند كل واحد هو للكل ، وأنك إن حافظت على مال غيرك حافظ غيرك على مالك ، وأنت إن اجترأتَ على مال غيرك فسيجترىء المجموع على مالك ، أنت ساعة تأكل مال واحد تُجرِّىء آلاف الناس على أن يأكلوا مالك ، وحين لا تأكل مال غيرك كأنك لم تأكل مالك.

وحينما نزلت الآية قال المسلمون : نحن لا نأكل أموالنا بالباطل ، وتحرَّجوا أن يأكلوا عند إخوانهم . وبعد ذلك رُفِع الأمر إلى رسول الله ﷺ ، فأوضح أن أكل التكارم ليس بالباطل ، وأنزل الله قوله تعالى :

﴿ لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ

إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا (٦١)﴾ (النور)

هذه الآية رفعت الحرج عنهم ، والباطل هو أن تأخذ الشيء بغير حقه ، مثال ذلك الربا ؛ لأن معنى «ربا» أن واحداً عنده فائض وآخر يحتاج ، والمحتاج ليس عنده الأصل ، أنطلب منه أن يرد الأصل وزيادة ، ويعطى الزيادة لمن عنده ؟

كيف يتأتَّى هذا ؟ هذا هو الأخذ بالربا ، أو الأخذ بالسرقة ، بالاختلاس ، أو الرشوة ، أو بالغش فى السلع ، كل ذلك هو أكل مال بالباطل ، وساعة تريد أن تأكل مالاً بالباطل ، كأنك تريد أن تتمتع بثمرة عمل غيرك ، وأنت بذلك تتعود على التمتع بثمرة عمل غيرك ، وتضمحل عندك قدرة العمل ويصير أَخْذك من غيرك أخذاً لماله كرهًا وبغير وجه حق .

وبذلك تتعطل حركة متحرك فى الحياة وهو ذلك العاطل ، ويخاف المتحرك فى الحياة وهو من تُفرض عليه الإتاوة فيقلّ ويضعف نشاطه فى الحياة ، كيف يكون شكل هذا المجتمع ؟ إن المجتمع فى هذه الحالة سيعانى من كرب وصعوبات فى الحياة.

فقوله سبحانه : ﴿ **لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ (٢٩)**﴾ (النساء) هو أمر لكل مسلم : لا تُرابِ ، ولا تسرق ، ولا تغش ، ولا تدلس ، ولا تلعب مَيْسِرًا ، ولا ترتش ، لأن كل هذه الأمور هى أكل أموال بالباطل ، وعندما ندقق فى مسألة لعب الميسر مثلاً نجد أمراً عجيبًا ، فالذين يلعبون الميسر يدَّعون أنهم أصدقاء ، وينتظر بعضهم بعضًا ويأكلون معًا ، وكل واحد منهم يجلس أمام الآخر وهو حريص أنَ يأخذ ما فى جيبه ، فأىُّ صداقة هذه؟

الحق قال لك : لا تأخذ مال غيرك لكى لا يأخذ غيرُك مالك ، وبذلك تكسب أنت ويكسب كل المجتمع ، فحين يصدر أمر لإنسان أن يكف يده عن السرقة فهو أمر للناس جميعًا كى يكفُّوا عن سرقة هذا الإنسان ، لذلك فحين تستقبل أى حكم عن الله لا تنظر إلى ما أخذه الحكم من حريتك ، ولكن انظر إلى ما أعطاه الحكم لصالحك من حرية الآخرين.

ومثال ذلك : حين ينهى الحق سبحانه عن النظر إلى المرأة الأجنبية ، فإياك أن تمدَّ عينيك إلى محارم غيرك ، هو أمر لا يخصك وحدك ، ولكنه أمر لملايين الناس ألاَّ يمدوا عيونهم إلى محارمك ، وعندما توازن الأمر فأنت الذى تكون أكثر كسبًا.

إننى لذلك أقول دائمًا : لا تنظر إلى ما فى التكليف من مشقة أو إلى ما أُخذ منك ، ولكن انظر فيه إلى ما يعطى لك ، فإن نظرت هذه النظرة وجدت كل تكليف من الحق هو ربح لك أنت ، وإلا لو أننا أطلقنا يدك فى الناس جميعًا لابد أن تُقدِّر أننا نطلق أيدى الناس جميعًا فيك ، وأنت إذا أطلقتَ يدك فى الناس فلن تؤثر فيهم مثلما يؤثرون فيك لو أطلقوا أيديهم فيك وفيما يخصُّك ، فمن مصلحتك ألا تطلق يدك فى الناس.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴿٢٩﴾﴾ (النساء) أى : إلا فى النفعية المتبادلة تبادل الأعواض ، فشىء عِوَض شىء ، وجاءت التجارة ، لأن التجارة هى الحلقة الجامعة لأعمال الحياة ، فالتاجر وسيط بين من ينتج سلعة ومن يستهلكها ، والسلع فى حركتها إنتاج واستهلاك ، والإنتاج قد يكون زراعيًا أو صناعيًا أو خدميًا. إذن : فالتجارة جامعة لذلك كله.

وكلمة «عن تراض» تدل على أن رضا النفس البشرية فى الأعواض مشروط ، حتى ما أُخذ بسيف الحياء يكون حرامًا ، لذلك أقول : على كل واحد أن يغربل إيمانه ، وينظر هل حياته فى أعواض الأموال وأعواض التجارة وأعواض المبادلات مستوية أو غير مستوية ؟ فإن لم تكن مستوية ، فعليه أن يفكر فيها قليلاً حتى يعطى كل ذى حق حقه.

وحتى لا يدخل فى دائرة حديث رسول الله ﷺ : «إنما أنا بشر ، وإنكم تختصمون إلىَّ ، فلعلَّ بعضكم أن يكون ألحنَ بحجته من بعض ، فأقضى له على نحو ما أسمع ، فمن قضيتُ له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار ، فليأخذها أو ليتركها»(١).

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧١٣) كتاب الأقضية من حديث أم سلمة رضى الله عنها.

١٩

طاعة أولِى الأمر

منهج الإيمان ونظامه الأساسي أن نطيع الله في هذا القرآن ، وأن نطيع رسوله في سنته وأولي الأمر من المؤمنين الداخلين في شرط الإيمان وحدّ الإسلام.

فإذا اختلف الناس وتنازعوا في شيء وخاصة المسائل الطارئة المتجددة والأقضية التي لم ترد فيها أحكام نصية ، فلنردها إلي الأحكام العامة لله ورسوله ، وبهذا يبقي المنهج الرباني مهيمنًا علي ما يطرأ علي الحياة من مشكلات وأقضية كذلك.

يقول الحق سبحانه : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴿٥٩﴾** ﴾ (النساء)

ساعة تستقرىء أمر الله بالطاعة فى القرآن الكريم ، فأنت تجدها فى صور متعددة ، فمرة يقول : ﴿**وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ .. ﴿٩٢﴾**﴾ (المائدة) ، فقد كرر الأمر بالطاعة لله وللرسول ، فالإطاعة لله فى الحكم العام ، وإطاعة الرسول فى تفصيله.

ومرة يقول سبحانه : ﴿**قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ .. ﴿٣٢﴾**﴾ (آل عمران) إنه هنا لا يكرر أمر الطاعة ، فهناك أمر للطاعة ، وهناك مطاع ، وهناك مطيع ، والمطيع هم المخاطبون ، فهو هنا يُوحِّد أمر الطاعة ، والمطاع هو الله ، والرسول يأتى معطوفًا على لفظة الجلالة.

ومرة يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴿٥٦﴾﴾ (النور) نحن ـ إذن ـ أمام حالات للطاعة :

الأولى : وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول.

والثانية : أطيعوا الله والرسول.

والثالثة : أطيعوا الرسول.

ومرة واحدة فقط يعطف على ذلك «أولى الأمر» ، فيقول جل وعلا : ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ .. ﴿٥٩﴾﴾ (النساء)

والحق سبحانه يقول هنا : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا .. ﴿٥٩﴾﴾ (النساء) فما دمت قد آمنت بالله إلهًا حكيمًا خالقًا عالمًا مكلفًا فاسمع ما يريد أن يقوله لك ، فلم يكلف الله مطلق أناس بأن يطيعوه ، إنما دعا مطلق الناس أن يؤمنوا به ، ومن يؤمن يقول له : أطعنى ما دمتَ قد آمنت بى.

إذن : فحيثية الطاعة لله وللرسول ﷺ نشأت من الإيمان بالله وبالرسول ، وهذه عدالة كاملة ، لأنه سبحانه لا يكلف واحداً أن يفعل فعلاً إلا إذا كان قد آمن به سبحانه مكلِّفًا ، آمن به آمراً ، أما الذين لا يؤمن به فهو لا يقول له : افعل كذا ولا تفعل كذا ، إنه سبحانه يطالبه أن يؤمن به أولاً ، فإذا ما آمن به يقول له : استمع إلىَّ.

إن حيثية إطاعة الله وإطاعة الرسول ﷺ هى : الإيمان به ، هذه هى الحيثية الإيمانية الأولى ، أما إنْ جال ذهنك لتدرك سر طاعته ، فهذا موضوع آخر ، ولذلك أوضح : إياكم أن تُقبلوا على أحكام الله بالبحث فيها أولاً ، فإن اقتنعتم بها أخذتموها ، وإن لم تقتنعوا بها تركتموها ، لا ، إن مثل هذا التصرف معناه أنك شككت فى الحكم ، بل عليك أن تُقبل على تنفيذ أحكامه ، لأنه سبحانه قالها وأنت مؤمن بأنه إله حكيم.

وطاعتنا لله تختلف عن طاعتنا للمخلوق ، فنحن نطيع الله لأننا آمنا به ، وحينما يطلب سبحانه منا أن نطيعه ، ننظر : هل هذه الطاعة لصالحنا أو لصالحه ؟ فإذا وثقنا أنه بكل صفات الكمال الموجودة له خلقنا . إذن : فسبحانه لا يريد صفة جديدة تكون له ، لأنه لم يخلقنا إلا بصفات الكمال فيه وسبحانه قد خلقك دون أن يكون له حق الخلق عنده ، خلقك بقدرته ، وأمدَّك لاستبقاء حياتك بقيوميته ، فحين يطلب منك الإله الذى يتصف بتلك الكمالات شيئًا فهو يطلبه لصالحك ، كما ترى أى إنسان من البشر ـ ولله المثل الأعلى ـ يُعنى بصنعته ، ويحب أن تكون صنعته متميزة ، فكذلك الحق سبحانه يريد أن يباهى بهذا الخلق.

وهو سبحانه يباهى بهذا الخلق ، ليس بالإكراه على أن يفعلوا ما يأمر به بالتسخير ، لا ، بل بالمحبوبية لأمر الله وأن نعلن بسلوكنا : نحن نحبك يا ربنا ، وإلا فأنت ـ أيها الإنسان ـ قد تختار أن تكون عاصيًا.

وما دمت مختاراً أن تكون عاصيًا ثم أطعت ، فهذه تثبت لله صفة المحبوبية ؛ لأنه ـ كما نعرف ـ هناك فرق بين من يقهر بقدرته ، ومن يعطيك الاختيار حتى تأتيه وأنت محب ، على الرغم من أنه قادر على أن يقهرك.

فساعة قال الحق : ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ .. ﴿٥٩﴾﴾ (النساء) معناها : أنه لم يطلب منا شططًا ، وكيف نطيع الله ؟ أن نطيعه فى كل أمر ، وهل أمر الله خَلْقه منفردين ؟ لا ، بل أمرهم كأفراد وكجماعة ، وأعطاهم الإيمان الفطرى الذى يثبت أن وراء الكون قوة أخرى خلقته ، وهذه القوة لا يعرف أحد اسمها ، ولا مطلوباتها ، أو ماذا ستعطى لمن يطيعها ، إذن : فلابد أن يوجد مُبلِّغ.

لابد من بلاغ عنه يقول : افعلوا كذا وكذا وكذا . إذن فقوله : ﴿**أَطِيعُوا اللَّه**﴾ يلزم منه إطاعة الرسول.

وبعد ذلك قال ﴿**وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ .. ﴿٥٩﴾**﴾ (النساء) وأولو الأمر هنا لم يتكرر لهم الفعل ، فلم يقل : وأطيعوا أولى الأمر لنفهم أن أولى الأمر لا طاعة لهم إلا من باطن الطاعتين : طاعة الله وطاعة الرسول ، فطاعة ولى الأمر ملزمة إن كانت من باطن طاعة الله وطاعة رسوله ، وفى ذلك عصمة للمجتمع الإيمانى من الحكام المتسلطين الذين يحاولون أن يستذلوا الناس بقول الله : ﴿**وَأُوْلِي الأَمْرِ .. ﴿٥٩﴾**﴾ (النساء) ويدَّعون أن طاعتهم واجبة.

يقول الواحد منهم : ألست ولى الأمر ؟ فيرد العلماء : نعم أنت ولى الأمر ، ولكنك معطوف على المطاع ، ولم يتكرر لك أمر الطاعة ، فدلَّ ذلك على أن طاعتك واجبة إن كانت من باطن الطاعتين ، فإنْ لم تكن من باطن الطاعتين فلا طاعة لك ، لأن القاعدة هى : «لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق».

هكذا قال أبو حازم لمسلمة بن عبد الملك حينما قال له : ألسنا ولاة الأمر وقد قال الله ﴿ **وَأُوْلِي الأَمْرِ .. ﴿٥٩﴾**﴾ (النساء) . قال : ويجب أن نفطن أيضًا إلى أنها نزعت فى قوله سبحانه : ﴿**فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴿٥٩﴾**﴾ (النساء).

إذن : فالحاكم المسلم مطالب أولاً بأداء الأمانة ، ومُطَالب بالعدل ، ومُطَالب أيضًا أن تكون طاعته من باطن طاعة الله وطاعة رسوله ، فإن لم تكن فيه هذه الشروط ، فهو حاكم متسلط.

﴿ **فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴿٥٩﴾**﴾ (النساء) إذن :

فالتنازع لابد أن يكون فى قضية داخلة فى نطاق مأمورات الطاعة ، ويجب أن يكون لها مردّ يُنهى هذا التنازع.

والذين يعرفون هذه الأحكام هم العلماء ، فإن تنازع المحكوم مع الحاكم نذهب إلى العلماء ليبينوا لنا حكم الله فى هذه المسألة ، إذن : فإن أريد بـ «أولى الأمر» الحاكم . نقول له : ﴿ **فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ** ﴿٥٩﴾ ﴾ (النساء) أى : على الحاكم أن يتبع ما ثبت عن الله والرسول.

والحجة فى ذلك هم العلماء المشتغلون بهذا الأمر ، وهم الملاحِظون لتنفيذ حكم الله بما يعرفونه عن الدين ، والحق سبحانه وتعالى حين يطلب منا ذلك ، يريد أن يُنهى مسألة التنازع ، لأن التنازع يجعل حركات الحياة متضاربة ، هذا يقول بكذا ، وذلك يقول بكذا ، فلابد أن نرده إلى مردٍّ أعلى.

والحق سبحانه يقول : ﴿**وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ .. ﴿٨٣﴾** ﴾ (النساء) إذن : فقد يكون المراد بأُولى الأمر «العلماء» نقول : إن الآية الأولى عامة وهى التى جاءت بها طاعة ولى الأمر ضمن طاعة الله والرسول ، والثانية التى تخص الاستنباط يكون المقصود بأُولِى الأمر هم العلماء.

وأولو الأمر فى القضية الأولى التى عندما نتنازع معهم فى أمر نرده إلى الله والرسول هم الذين يشرفون على تنفيذ أحكام الله ، وهذه سلطة تنفيذية ، أما سلطة العلماء فهى تشريعية إيمانية.

﴿**فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴿٥٩﴾** ﴾ (النساء) إذن : فالذى لا يفعل ذلك يجازف بأن يدخل فى دائرة من لا يؤمن بالله واليوم الآخر ، ونقول لكل منهم : راجع إيمانك بالله واليوم الآخر ابتداءً

فى تلقِّى الحكم ، وإيمانًا باليوم الآخر لتلقى الجزاء على مخالفة الحكم ، فالحق لم يجعل الدنيا دار الجزاء.

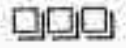

٣٠

أخْذ الحذر .. والاستعداد الدائم للنفرة للجهاد

هذا الكتاب لا يُعلِّم المسلمين العبادات والشعائر فحسب ، ولا يعلِّمهم الآداب والأخلاق فحسب كما يتصور الناس الدين ذلك التصور المسكين ، إنما هو يأخذ حياتهم كلها جملة ، لتكون بجملتها من صنع هذا المنهج ، وتحت تصرُّفه وتوجيهه.

فها هو القرآن يرسم للمسلمين الخطة العامة للمعركة ، وليأخذوا حذرهم ، لا من العدو الخارجى وحده ، ولكن أيضًا من المعوِّقين المبطِّئين المخذِّلين.

يقول الحق سبحانه :﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا (٧١)** ﴾ (النساء)

يؤكد التاريخ البشرى أن الفساد يطم عندما يتعطل منهج الله ، والله يتدخَّل برسالة ، وكل رسالة جاءت كان لها خصوم وهم المنتفعون بالشر ، وهؤلاء لن يتركوا منهج الله يسيطر ليسلبهم هذه الهيمنة والسيطرة والقهر والجبروت والانتفاع بالشر ، بل يحاربون رسالات السماء.

ويلفتنا الحق سبحانه إلى أن أهل الشر والناس المنفلتين من مناهج السماء وغير المتدينين سيسببون لكم متاعب ، فبعدما توطنون أنفسكم التوطين الإيمانى انتبهوا إلى خصومكم وأعدائكم فى الله.

لقد قال الحق سبحانه فى هذه القضية : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا (٧١)** ﴾ (النساء)

فإياكم أن تنتظروا حتى يترجموا عداءهم لكم إلى عدوان ، لأنهم سيعجلونكم ، فلا توجد عندكم فرصة زمنية كى تواجهوهم ، فلابد لكم أيها المؤمنون من أخْذ الحذر ، لأن لكم أعداء ، وهؤلاء الأعداء هم الذين لا يحبون لمنهج الله أن يسيطر على الأرض ، فحين يسيطر منهج الله على الأرض فلن يوجد أمام أهواء الناس فرصة للتلاعب بأقدار الناس ، ومن ينتفعون بسيطرتهم وبأهوائهم على البشر لن يجدوا لهم فرصة سيادة.

ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ... ﴿٦٠﴾**﴾ (الأنفال)

فهذا تكليف من الله تعالى لعباده المؤمنين الذين يجاهدون لإعلاء كلمته بضرورة أن يعدوا دائمًا قدر إمكانهم ما استطاعوا من قوة ، والقصد من إعداد هذه القوة هو إرهاب العدو حتى لا يطمع فيكم ، لأن مجرد إعداد القوة هو أمر يُسبِّب رهبًا للعدو.

ولهذا تقام العروض العسكرية ليرى الخصم مدى قوة الدولة ، وحين تبين لخصمك القوة التى تملكها لا يجترئ عليك ، ويتحقق بهذا ما نسميه بلغة العصر «التوازن السلمى» ، والذى يحفظ العالم الآن بعد سقوط الاتحاد السوفيتى هو التوازن السلمى بين مجموعات من الدول ، بالإضافة إلى العامل الاقتصادى المكلِّف للحرب.

فالقوة الآن لا تقتصر على السلاح فقط ، ولكن تعتمد القوة على عناصر كثيرة منها الاقتصاد والإعلام وغيرهما ، وصار الخوف من رد الفعل أحد الأسباب القوية المانعة للحرب ، وكل دولة تخشى مما تخفيه أو تظهره الدولة الأخرى ، وهكذا صار الإعداد للحرب ينفى قيام الحرب.

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ **فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا** ﴿٧١﴾ ﴾ (النساء)

أى : لتكُنْ النفرة منكم على مقدار ما لديكم من الحذر ، و «ثبات» جمع ثُبَة ، وهى الطائفة . أى : انفروا سرية بعد سرية.

و «جميعًا» أى : اخرجوا كلكم لمواجهة العدو ، وعلى ذلك يجب أن نكون على مستوى ما يهيج من الشر ، فإن هاجمتنا فصيلة أو سرية ، نفعل كما يفعل رسول الله ﷺ ، فقد كان يرسل سرية على قدر المسألة التى تهددنا ، وإن كان الأمر أكبر من ذلك ويحتاج لتعبئة عامة فنحن ننفر جميعًا.

ولاحظوا أن الحق يخاطب المؤمنين ويعلم أن لهم أغياراً قد تأتى فى نفوسهم مع كونهم مؤمنين ، فقد تخور النفس عند مواجهة الواقع على الرغم من وجود الإيمان.

لذلك قال الحق سبحانه فى سورة البقرة : ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . . .** ﴿٢٤٦﴾ ﴾ (البقرة)

لقد كانوا هم الذين يطلبون القتال ، وما داموا هم الذين قد طلبوا القتال ، فلابد أن يفرحوا حين يأتى لهم الأمر من الله بذلك القتال ، لكن الله أعلم بعباده.

لذلك قال لهم : ﴿ **هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا . . .** ﴿٢٤٦﴾ ﴾ (البقرة) ، فأوضح لهم الحق أن فكِّروا جيداً فى أنكم طلبتم القتال ، وإياكم ألاَّ تقاتلوا عندما نكتب عليكم هذا القتال ، لأننى لم أفرضه ابتداء ، ولكنكم أنتم الذين طلبتم.

ولأن الكلام ما زال نظريًا فقد قالوا متسائلين : ﴿**وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ... ﴿٢٤٦﴾**﴾ (البقرة)

لقد تعجبوا واستنكروا ألاَّ يقاتلوا فى سبيل الله ، خصوصًا أنهم يملكون السبب الذى يستوجب القتال وهو الإخراج من الديار وترك الأبناء ، لكن ماذا حدث عندما كتب الحق عليهم القتال؟

﴿ **تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾**﴾ (البقرة)

لقد هربت الكثرة من القتال ، وبقيت القلة المؤمنة ، وكانت مقدمات هؤلاء المتهربين من القتال هى قولهم ردًا على نبيهم عندما أخبرهم أن الله قد بعث لكم طالوت ملكًا ، فقالوا : ﴿**أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ... ﴿٢٤٧﴾**﴾ (البقرة)

كانت تلك أول ذبذبة فى استقبال الحكم ، فأوضح لهم الحق السر فى اصطفاء طالوت ، فهو قوى ، والحرب تحتاج إلى قوة ، وهو عالم والحرب تحتاج إلى تخطيط دقيق ، فقال سبحانه : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ... ﴿٢٤٧﴾**﴾ (البقرة)

وعندما جاءوا للقتال أراد الحق أن يُمحِّصهم ليختبر القوى من الضعيف ، فقال لهم طالوت : ﴿**إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ... ﴿٢٤٩﴾**﴾

(البقرة)

والتمحيص هنا ليعرف مَنْ منهم يقدر على نفسه ، وليختبر قوة التحمل

عند كل فرد مقاتل ، فليس مسموحًا بالشرب من ذلك النهر إلا غرفة يد ، فشربوا من النهر إلا قليلاً منهم ، هكذا أراد الحق سبحانه أن يُصفِّيهم تصفية جديدة.

وعندما رأوا جيش جالوت قالوا : ﴿**لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ... ﴿٢٤٩﴾**﴾ (البقرة) ، لكن ما الضرورة فى كل هذه التصفيات ؟ لقد أراد الله ألاَّ يحمل الدفاع عن منهجه إلا المؤمنون حقًا ، وهم من قالوا : ﴿**كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ... ﴿٢٤٩﴾**﴾ (البقرة)

ثم قال الحق سبحانه : ﴿**فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ ... ﴿٢٥١﴾**﴾ (البقرة)

فلماذا أعطانا ربنا هذه الصورة من التصفيات ؟ كي نفهم أن النفس البشرية حين تُواجَه بالحكم نظريًا يكون لها موقف ، أما حين تُواجَه به تطبيقيًا فيكون لها موقف ولو بالكلام ، أما حين تواجه به فعليًا فيكون لها موقف ثالث.

وعلى كل حال ، فقليل من قليل من قليل هم الذين نصرهم الله.

إذن : فيريد سبحانه أن يربى فى نفوسنا أنه جل وعلا هو الذى يهزم ، وهو الذي يغلب ، مصداقًا لقول الحق سبحانه : ﴿**قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ... ﴿١٤﴾**﴾ (التوبة)

إذن : فالحق سبحانه وتعالى يوضح لنا : لقد قلت لكم انفروا ثُبَات أو انفروا جميعًا ، واعلموا أن النفس البشرية هى بعينها النفس البشرية ، وستتعرض للذبذبة حين تواجه الحكم التطبيقى .

لذلك يقول الحق سبحانه هنا : ﴿**وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾**﴾ (النساء)

فساعة ندعو إنسانًا منكم للحرب قد يبطئ ويتخاذل ، مثلما قال فى آية أخرى : ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ ... ﴿٣٨﴾﴾ (التوبة)

فالحق سبحانه يتعجب من تثاقل المؤمنين حين يُدْعَوْن إلى القتال ، لأن قوة الإيمان تدعو دائمًا إلى أن يكون هناك استعداد مستمر للقتال ، وهذا الاستعداد يخيف الكفار ويمنع عدوانهم واستهتارهم بالمؤمنين أولاً.

كما أنه ثانيًا يجعل المؤمنين قادرين على الرد والردع فى أى وقت ، ويعطى ثالثًا شيئًا من اليقين للمجتمع المؤمن عندما يرى أن هناك من يضرب على يد الكافرين إذا استهانوا بمجتمع الإيمان ، وحاولوا أن يستذلوا المؤمنين.

إذن : فَلِكَىْ يبقى المجتمع المؤمن قويًا آمنًا لابد أن يوجد استعداد دائم للقتال فى سبيل الله ورغبة فى الشهادة ، وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ... ﴿٣٨﴾﴾ (التوبة)

فكأن الاستعداد المستمر للقتال فى سبيل الله أمر لابد أن يوجد بالفطرة وبالعقل ، فإذا ضعف هذا الاستعداد أو قلَّ صار هذا الأمر موطنًا للتعجب ، لأن المؤمنين يعرفون أن مجتمع الكفر يتربص بهم دائمًا ، وعليهم أن يكونوا على استعداد دائم مستمر للمواجهة ، ويستنكر الحق أن يتثاقل المؤمنون إذا دُعُوا للقتال فى سبيل الله ، أو أن يتكاسلوا .

والحق سبحانه يقول : ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ ... ﴿٧٢﴾﴾ (النساء) ، فافهموا وخذوا هذه المناعة ضد من يعوق زحف المنهج قبل أن تبدأ المعركة ، حتى إذا وقعت المعركة نكون قد عرفنا قوتنا ، وأعددنا أنفسنا على أساس

المقاتلين الأشداء ، لا على من يتباطئون ويتثاقلون ، فهناك من يفرح ببقائه حيًا عندما يرى هزيمة المسلمين أو قتل بعضهم لأنه لم يكن معهم.

فيظهر الحق أمثال ذلك ويقول : ﴿**فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا** ﴿٧٢﴾﴾ (النساء) ، لقد تراخى وبقى ، وعندما تأتيهم المصيبة من قَتْل أو هزيمة يقول لنفسه : الحمد لله أننى لم أكن معهم.

إذن : تثاقله وتخلُّفه وتأخره عن الجهاد كان عن قصد وإصرار فى نفسه ، وهذه قمة التبجح فهو مخالف لربنا ، وعلى الرغم من ذلك يقول : أنعم الله علىّ . مثله كمثل الذي يسرق ، ويقول : ستر الله علىّ.

وهذه لهجة من لم يفهم المنهج الإيمانى ، فيقول : ﴿ **قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا** ﴿٧٢﴾﴾ (النساء) إنه لم يكن معهم ولم يكن شهيداً ، ويعتبر هذا من النعمة ، ولذلك قال بعض العارفين : إن من قال ذلك دخل فى الشرك ، فالمصيبة فى نظره إما قتل وإما هزيمة ، ثم ماذا يكون موقف المتخاذل المتثاقل المتباطئ عند الغنيمة أو النصر؟

يقول الحق سبحانه : ﴿**وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا** ﴿٧٣﴾﴾ (النساء)

إذن : فالعلة فى قوله : (ياليتنى كنت معهم) ليست رجوعًا عما كان فى نفسه أولاً ، بل هو تحسُّر أن فاتته الغنيمة ، وجاء الحق سبحانه وتعالى هنا بجملة اعتراضية فى الآية تعطينا لقطة إيمانية ، فيقول : ﴿**وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا** ﴿٧٣﴾﴾ (النساء)

والجملة الاعتراضية هى قوله : كأن لم تكن بينكم وبينه مودة ، كأن المودة الإيمانية ليس لها ثمن عنده ، فلو كان لها أدنى تقدير لكان عليه ألا يقول فى البداية : أنعم الله علىّ إذ لم أكن معه شهيداً ، ولكان مع المقاتلين المسلمين ، لكنه يرغب فى الفوز والغنيمة فقط ، ويبتعد عن المسلمين إذا ما أصابتهم الهزيمة أو استشهد عدد منهم.

وبذلك يكشف لنا الحق موقف المتخاذلين ويوضح لنا : إياكم أن تتأثروا بهؤلاء حين تنفرون ثبات أو حين تنفرون جميعًا ، واعلموا أن فيكم مُخذِّلين ، وفيكم مُبطِّئين ، وفيكم متثاقلين ، لا يهمهم إلا أن يأخذوا حظّاً من الغنائم ؛ ولذلك يحمدون الله أن هُزِمتم ولم يكونوا معكم ، ويحبون الغنائم ويتمنونها إن انتصرتم ولم يكونوا معكم.

إياكم أن تتأثروا بهذا وقد أعطيتم هذه المناعة حتى لا تفاجأوا بموقفهم منكم ، وتكونوا على بصيرة منهم ، والمناعات ما هى إلا تربية الجسم ، إن كانت مناعة مادية ، أو تربية فى المعانى ، إنْ حدث مكروه فأنت تملك فكرة عنه لتبنى ردّ فعْلك على أساس ذلك.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
• كلمة الناشر	٣
• مقدمة	٥
القسم الأول	
١ ـ عطاء الربوبية	٩
٢ ـ الحلال الطيب .. وخطوات الشيطان	٦١
٣ ـ تقوى الله	٩٧
٤ ـ رسالة الحق	١٢٣
٥ ـ الرسول نور وبرهان	١٣٩
٦ ـ عموم رسالة محمد ﷺ	١٥٣
٧ ـ البغى .. ومتاع الحياة الدنيا	١٧٣
٨ ـ موعظة .. الشفاء والهدى والرحمة	١٨٩
٩ ـ يقين الداعى	٢٠٣
١٠ ـ الهدى .. والضلال	٢١٩
١١ ـ زلزلة الساعة	٢٣٩
١٢ ـ الخلق دليل على البعث	٢٦١
١٣ ـ البشير النذير	٢٧٥
١٤ ـ عجز الآلهة	٢٨٥
١٥ ـ يوم الفزع الأكبر	٢٩٧
١٦ ـ هل من خالق غير الله؟	٣١٣
١٧ ـ المعركة الخالدة مع الشيطان	٣٢٩
١٨ ـ الله غنى عن خلقه	٣٤١
١٩ ـ أكرمكم أتقاكم	٣٥٥

القسم الثانى
متطلبات الإيمان

١ ـ الأدب مع رسول الله ﷺ ٣٦٧
٢ ـ الصبر والصلاة ٣٨١
٣ ـ طيبات الرزق .. وعبادة الشكر ٣٩٣
٤ ـ القصاص شريعة العدل ٤٠٣
٥ـ الصيام منهج لتربية الإنسان ٤١٩
٦ ـ الإسلام استسلام لله .. وسلام مع الكون ٤٣١
٧ ـ إنفاق من رزق الله لنا ٤٣٩
٨ ـ لماذا تمنٌ بما أنفقت .. والمال ليس مالك؟ ٤٤٣
٩ ـ الإنفاق يكون من الحلال الطيب ٤٤٣
١٠ ـ ربانية النظام الاقتصادى فى الإسلام ٤٦١
١١ ـ الإسلام يحمى المجتمع من الوقوع فى أكْل الحقوق ٤٧٣
١٢ ـ الحذر من طاعة أهل الكتاب ٤٨٥
١٣ ـ تقوى الله .. حق تقاته ٤٩١
١٤ ـ بطانة الشر ٤٩٩
١٥ ـ لو كانوا عندنا ما ماتوا ٥٠٩
١٦ ـ صبر ومصابرة ومرابطة ٥١٧
١٧ ـ حقوق المرأة ٥٢٧
١٨ ـ حرمة أكل الأموال بالباطل ٥٣٧
١٩ ـ طاعة أولى الأمر ٥٤٥
٢٠ ـ أخذ الحذر .. والاستعداد الدائم للنفرة ٥٥١

تم المجلد الأول من كتاب « هذا ديننا »